
مصطفى محمود
الخروج
من التابوت
Bibliotheca Alexandrina
0201908
دار المعارف

مصطفى محمود

الخروج من التابوت

الطبعة الخامسة

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع .

١

كانت العربة تخوض شوارع ضيقة مليئة بالحفر وبين حين وآخر يتصاعد الرشاش فيغرق النوافذ وينزل السائق لينتزع العربة من حفرة عميقة مليئة بماء المطر ، ثم يعود ليكركر فى طريقه ونحن نتخضخض فى أماكننا والعرق يسيل على جباهنا من شدة الرطوبة . . وكان الدليل « كاكوما » إلى جوارى يصف المناظر التى نمر بها ويشير بيده قائلا :

هذه دلهى عاصمة الهند القديمة شيدت سنة ١٦٣٨ . . وهذه العمائر التى تراها يعود تاريخها لأكثر من ثلاثمائة عام وهذا النهر الذى يتهادى أمامنا هو نهر « جمنا » أحد أفرع نهر الكنج . .

وكان على الشاطئ أمامى مئات الهنود الفقراء وقد افترشوا الأرض ونصبوا خياماً مهلهلة من الخرق القديمة وكان الذباب والقذارة فى كل مكان حيثما أرسلت بصرى . .

وساءلت نفسى . . من أين أتى طاغور بكل الجمال والنقاء

والشاعرية التى قطرها فى قصائده ودواوينه كالرحيق المسكر . .

كانت الصورة الأولى التى طالعتنى عن الهند صورة حزينة تعيسة ولم تكن تبدو لى بالمكان المختار الذى يلهم الشاعر بمثل هذه الأبيات السماوية . .

وكان اليوم هو اليوم الأول فى الاحتفالات المئوية بذكرى طاغور . .

والظاهر أنى سرحت طويلا فى تساؤلاتى لأن صوت الدليل « كاكوما » أيقظنى وهو يصف قوساً كبيراً أثرياً ويشير بيده إلى نقوش مكتوبة بلغة سنسكريتية .

ولم أكن أسمعه وإنما كنت أصغى بكل حواسى إلى عويل ناى يعزف عن قرب .

وأيقظ فى صوت الناى تلك الوشائج الغامضة التى تضم كل الشرقيين . . وشعرت كأنما أنا أتنقل فى وطنى . . وكأنما أستمع إلى أحزانى . . وكأنما هذه الوجوه الدامعة وهذه الأيدى المعروقة التى تمتد لتشحذ هى الأيدى التى أعرفها فى الحسين والسيدة وأزقة القاهرة القديمة . .

لم أفق إلا على صوت « كاكوما » وهو يصيح .

– لقد وصلنا . . هذه هى القلعة . .

ونظرت إلى الأثر الجليل الذى يرتفع أمامى .

هذه إذن هى القلعة الحمراء . .

أخيرًا . . أنا فى الهند . .

وكنت أتأمل البناء الأسطورى الشامخ وأشعر أنى عدت ألف سنة إلى الوراء وعلى عتبات البناء كان هناك زحام . . وكانت هناك حلقة من الهنود حول فقير هندى يجلس فى الوسط على ملاءة بيضاء وقد عقد يديه على صدره ومضى يتمتم وقد أغمض عينيه . .

ونظرت إلى دليلى أسأله عما يجرى ولكنى فوجئت به يشدنى فى اشمئزاز . .

– هذه شعوذة . . لقد جاء الوقت لنتخلص من هذه الشعوذة .

ولكن الفقير الهندى بدأ يرتفع عن الأرض . . بدأ يطير فى الهواء دون أن تمسك به يد وتجمد الدم فى عروقى وأسرعت إلى الحلقة فى فضول مسحور . .

مددت يدى تحت الرجل وقد خيل إلى أن هناك أعمدة خفية تحمله . . ولكن لم يكن هناك شىء . .

كان الرجل يفترش الملاءة فى الهواء وينام عليها فى هدوء وكأنها بساط سليمان ، « وكاكوما » مازال يشدنى من يدى ليدخل بى القلعة هاتفًا . .

– هذه شعوذة . . شعوذة لاتستحق منك أى اهتمام . .

–ولكنى لاأرى فى الأمر شعوذة . . إن للرجل قدرة خارقة . . هذه معجزة واضحة لكل ذى عينين . .

– أين المعجزة . . أين القدرة الخارقة . . إذا كان للرجل تلك القدرة الخارقة فلماذا لايعمل بها ليأكل بدلا من حياة الجوع والمرض والفقر التى يعيشها . .

– ولكنه يطير . . ألا ترى . . . أنه يطير فى الهواء . .

– إن الطائرة تطير أسرع منه . . إننا فى عصر الصواريخ والنفاثات والأقمار الصناعية . . إنه مواصلة متخلفة جداً . .

– ولكنه يأتى بشىء خارق يخالف جميع القوانين . .

وكان الفقير الهندى قد بدأ يهبط بهدوء إلى الأرض وكأنه يهبط بمظلة . . حتى استقرت ملاءته على الأرض . . وكان مايزال على حاله مغمض العينين يتمتم . . على حين راح الدليل يبرطم فى ضيق واضح . .

– ألا ترى انه لو عمل وفقًا للقوانين لوصل إلى نتيجة أحسن وأضمن . إن إخوانه الهنود الذين دخلوا كليات الهندسة والطيران يخترعون أشياء أحسن . . إننا الآن فى عصر العلم . . ولاشىء يؤخر الهند سوى هؤلاء المشعوذين . . إنه لأمر مخجل . . أمر مشين . . العالم يتقدم مسرعًا ليغزو الفضاء ونحن مازلنا فى عصر الحواة نأكل الثعابين ونمشى على المسامير ونخطو على الهواء . .

–ولكن هذا الفقير عنده من العلم مايفوق علم كل الذين يبنون الطائرات والنفاثات . .

– سيدى . . إننا شعب فقير جدًّا . . وقد رأيت بنفسك القذى والأقذار والأدران والأوبئة والأمراض فى كل مكان . . وهذا الإغراق فى الغيبيات والغوامض هو الذى قعد بنا طوال هذه القرون . .

– ولكن هذه معجزة .

– إذا كان الرجل يأتى بالمعجزات فلماذا لم ينقذنا وينقذ نفسه من المجاعات . . إن أول من يموت فى المجاعات هم هؤلاء الفقراء المشعوذين . . سيدى إنها مأساة . . أنت لاتعرف الهند . . إن المعجزة الحقيقية هى مانصنعه الآن . . نحن الآن نصنع الصلب والآلات الحديثة ونعلم أولادنا فى المدارس . . ماذا فعل صاحبك بعد أن أتى بمعجزته . . إنه يشحذ . . انظر إنه يشحذ . .

وكان الفقير الهندى قد عقد ذراعيه على صدره وراح يتلقى الروبيات التى يلقى بها المتفرجون فى حجره دون أن ينطق بحرف . .

وشدنى «كاكوما» من يدى وصعد بى على درج القلعة . . وراح يصف لى النقوش على السقف والجدران ويتكلم كلامًا كثيرًا عن تاريخ القلعة وعن الذى بناها وعن العصور التى تعاقبت عليها . . ولكنى لم أكن أسمع . . كنت مازلت أفكر فى الرجل الذى

طار . . جلس على ملاءة وعقد يديه على صدره وأغمض عينيه وطار . . هكذا ببساطة . . بدون مروحة وبدون موتور وبدون وقود . . بمجرد الإرادة . . بقوة العقل الخالص . .

أى إرادة خارقة نافذة وراء هاتين العينين المغمضتين . .

كان منطق الدليل فى غضبه وثورته يبدو لى شاحباً . . ولم تكن كل هذه الثورة تعنى لى شيئًا أكثر من غضبة قومية فى غير محلها . .

إنه يتكلم عن العلم . . أى علم ! ؟ . . وأمامنا علم فوق كل العلوم .

وماذا يضير الفقير فى أنه يشحذ . . وماذنبه فى أن الحظوظ والأرزاق فى هذه الدنيا موزعة . . هكذا . .

كنت أرى الرجل وقد عقد يديه على صدره وطار . . وطار . .

وأقول لنفسى . . كيف . .

وتسرى فى بدنى الرعدة . .

هل يمكن . . أن يخرق القانون الطبيعى بهذه البساطة . .

أم أنه لاقانون هناك . .

أم أن الإرادة هى القانون الأعلى فوق جميع القوانين . .

ولكنى أريد الطيران فلاأستطيع الطيران ، ولاأستطيع أن أرفع نفسى إلا قفزًا بقوة العضلات ثم أعود فأقع على الأرض قليل الحيلة مهيض الساق . . فى حين أن الرجل يتمدد فى الهواء مغمض العينين

وكأنه يسبح على بحر من الزئبق . .

إنه يطير فى وضح النهار . .

عريانًا إلا من خرقة لاتكاد تستره . ممددًا على الهواء كأنه ممدد على فراشه .

لاحيلة هناك ولاشعوذة . .

كيف ! ؟ . .

كيف ! ؟ . .

أريد أحدًا أسأله وأكلمه وأناقشه وأفضى له بحيرتى . .

الدليل الذى يرافقنى يكلمنى عن القلعة وعن ماضى الهند المذهل . . وكلما عدت إلى الموضوع أشاح بيديه . .

مالى أنا وهذه الحجارة إذا كانت من رخام أو من مرمر . .

هذه القلعة رفعها إنسان بالجهد الجهيد والعناء والعرق . .

ولكن هناك إنسان رفع نفسه .. تمدد على الأرض وطار . .

دون أن يبذل جهدًا . . ودون أن تنقبض له عضلة . . استرخى فى اطمئنان كأنه لايفعل شيئًا . .

ثم فعل مستحيلا . .

طول الوقت وأنا أصعد درجات القلعة ، وأنا أدور فى شرفاتها .

وأنا أعود فى طريقى عبر الشوارع الضيقة المليئة بالحفر . .

وأنا أدخل نيودلهى . .

وأنا أصل إلى فندق أشوكا حيث أنزل مع الوفد الذى أرافقه . .

وأنا أتناول عشائى . .

وأنا أضع رأسى على فراشى لأنام . .

وأنا مطارد برؤيا لاتفارقنى . .

رؤيا رجل تمدد على الأرض وأغمض عينيه فى استرخاء وطار . . هل كنت أحلم .

لا . . أنا عائد لتوى من رحلة نهار شاقة . . أنا يقظان . . حواسى كلها حاضرة . .

لم أستطع النوم . .

قمت من فراشى وفتحت النافذة . .

وقفت أتنسم هواء نوفمبر . . الرقيق . . فكرت طويلا . .

كل ماقرأت من علوم لم يسعفنى . .

عملى كمفتش آثار ودارس للغة المصرية القديمة . .

كنت قد بدأت أكتب الأوراق الأولى فى رسالة دكتوراه فى اللغة الهيروغليفية . .

كل هذا لاشىء . .

لقد عشت طول حياتى جاهلا . .

ارتديت ثيابى ونزلت بهو الفندق . .

كانت الساعة متأخرة من الليل وكان البهو خاليًا . . إلا من شبح واحد يجلس فى ركن يشرب . .

إنه صديقنا أمرى خان المرافق لوفدنا (يبدو أن اسمه محرف من عمرو خان) . . وشعرت بالراحة وأنا أتطلع إلى وجهه الرقيق المثقف . .

أخيرًا وجدت من يستمع إلىّ ويفهمنى ... وكان الرجل ينظر إلىّ بابتسامة تتسع فى ترحيب كلما اقتربت منه . .

مد يديه مرحبًا وقال :

–أرجو أن تكون مستريحًا فى الفندق . . يبدو أنك لم تستطع النوم . . هل الجو يضايقك . . إن شهر نوفمبر ألطف الشهور جوًا عندنا . .

–إنه ليس شيئًا خاصًا بالنوم أو الحر أو الفندق . . إنى . . إنى لاأعرف ماذا أقول . . لقد شاهدت شيئًا حيرنى . . لقد كنت اليوم فى القلعة الحمراء . .

ورأيته يبتسم ويردف مقاطعًا فى أدب . .

–إنه الفقير « براهما واجيسوارا » . . أنا أعرف . .

– إنك لن تقول إنه مشعوذ كما قال الدليل . . لقد رأيته بعينى هاتين . .

– لا ، إنه ليس مشعوذًا . . إن بعض الشباب العصرى عندنا

أصبح يكره هؤلاء الفقراء لأنهم ينشرون حولهم جوًّا من الإيمان بالروحية . . وهم يشكلون فيما بينهم جمعيات لمحاربتهم . . وأنت تعرف أن مهاتما غاندى قتل بيد واحد من هولاء المتعصبين . . ولابد أن دليلك كان من هؤلاء الشبان . . إنها القصة المعادة . . قصة الصراع بين الجديد والقديم . .

– ولكن هل يمكن . . هل يمكن أن يفعلها . . أن يتمدد على الأرض ويطير . . لقد رأيته بعينى . . إنها لايمكن أن تكون خدعة . .

– إنها ليست خدعة أنا أعرف براهما واجيسوارا . . وهو صديقى . . لقد رأيته يدفن نفسه حيًّا ويعيش تحت التراب أيامًا . . ورأيته يتحكم فى نبضات قلبه فيخفض سرعتها إلى ثلاثين نبضة فى الدقيقة ويرتفع بها إلى مائة بمجرد الإرادة . . ورأيته يتحكم فى تمدد شرايينه وانقباضها فيمد لك يده فإذا هى حمراء محتقنة ويمد لك الأخرى فإذا هى صفراء غاض منها الدم . . إنه رجل عجيب . . عنده هبات غير طبيعية . . وهذا كل مايمكن قوله . .

– ولكن كيف . . كيف ؟

– هناك أشياء لانعرفها ويبدو أن عقولنا تملك قوى ذاتية تستطيع أن تؤثر بها فى الأشياء من غير طريق الجسد والحواس . . لقد اكتشفنا قوة البخار والكهرباء والذرة ولكنى أعتقد أننا يومًا ما

سوف نضيف مصدرًا آخر خطيرًا للقوة . . هى قوة العقل نفسه . .

– تقصد الروح . .

– لاأدرى . . سمها الروح أو العقل أو النفس . . إنها كلمات تؤدى إلى الكثير من الخلط . .

– قل لى بصراحة هل تعتقد ببقاء الإنسان بعد موته . .

– إذا كانت الشمعة حينما تنطفئ يظل نورها يرتحل ملايين السنين فى الفضاء حيث يمكن أن يلتقط ويشاهد . . وهذا شأن شمعة . . فما بالك بإنسان تنطفئ حياته . . كيف تستبعد أن يكون له بقاء بعد موته . . انظر إلى السماء ترى بين النجوم اللوامع نجومًا تتألق ، يقول لك الفلكيون أن نورها انطفأ من ملايين السنين . . وهذا شأن المادة باقية أبدًا . . تتحول وتتحول ولكنها لاتفنى فما بالك بالإنسان وهو أرقى مادة فى الوجود . .

ثم تعالى لنفكر معًا . . ماالمادة التى يطنطن بها الماديون . . إنها لم تعد فى ضوء العلم المادة الصلبة التى نعرفها وإنما تبخرت إلى خلاء منثورة فيه ذرات . . والذرات قال لنا العلم أيضًا إنها خلاء منثورة فيها ألكترونات تدور حول أنوية من البروتونات . . وماالألكترونات والبروتونات فى النهاية إلا شحنات كهربائية . . أى طاقة . . مجرد طاقة . . إذن فالمادة طاقة . . نشاط . . مجرد نشاط موجى . . مجرد حادثة تجرى فى الفضاء المطلق . .

وتوقف أمرى خان ليرتشف رشفة من كأسه ، ثم صفق للجرسون ليطلب لى كأسًا . . ولكنى طلبت كوبًا من عصير الليمون . .

كنت أريد أن أحتفظ بعقلى يقظًا متفتحًا لكل كلمة يقولها . .

وأردف أمرى خان وهو يصب لنفسه كأسًا ثانية . .

– إذا كنت قرأت النسبية فأنت تعرف أن أينشتين قال إن كل جسم له مجال حوله وأن هناك بعدًا رابعًا غير مرئى للمادة هو الزمن ، نعرفه بالحدس والتخمين ، وتقصر حواسنا المباشرة عن إدراكه . . فلماذا تعجب إذا قال لك علماء الروح إن الجسم الإنسانى له مجال مغناطيسى حوله وأن الروح تعيش فى العالم الرباعى الأبعاد وتدركه . . وأنها ذات طبيعة موجية تمكنها من اختراق الحجب . . وأنها حادثة من الحوادث التى تجرى فينا وحولنا فى الفضاء المطلق . .

إننا نرى الأشعة البنفسجية ولانرى الأشعة فوق البنفسجية ، لأن أمواجها أقصر وذبذبتها أسرع . . وعلم الطبيعة يقول لنا إنه كلما كانت الذبذبة أسرع والموجة أقصر فإنها تكون أكثر نفاذًا واختراقًا للمواد وأكثر خفاء على الحواس . . وما الأرواح إلا هذه المخلوقات الموجية ذات الذبذبة العالية ، فهى تخترقنا وهى فينا وهى حولنا ونحن لانسمعها ولانراها . .

وليس هناك مايدعونا لأن نتصور أنه لاتوجد بين أطوال الأمواج والذبذبات إلا الأمواج والذبذبات التى أدركناها بمقاييسنا . والطبيعى أن نتصور أن هناك مراتب ودرجات من الذبذبة لانهاية لها . .

والنسبية تقول لنا إننا لو سرنا بسرعة الضوء لرأينا شعاع الضوء الذى يسير بجانبنا له ملمس ومظهر المادة الصلبة وكأنه قضيب من حديد . .

وربما لو سرنا بهذه السرعة لرأينا الأرواح أجسامًا متثاقلة ملموسة كأجسامنا . .

إن مايظهر لنا من أمر هذا الكون يتوقف على الموقف النسبى الذى نلاحظ منه الأشياء والحقيقة يمكن أن تتخذ ألف شكل لأعيننا إذا اتخذنا ألف موقف نلاحظها منه . . نقطة الماء إذا نظرنا إليها بالعين غير نقطة الماء إذا نظرنا إليها بالميكرسكوب غير نقطة الماء إذا نظرنا إلى بخارها بالإسبكترسكوب . .

إن شهادة الحواس سوف تظل تنقل لنا مراتب مختلفة من الحقيقة كلها نسبية بحسب الظروف التى نشاهدها فيها . .

وسكت أمرى خان هذه المرة طويلا وراح يهز الكأس بما فيه من قطع الثلج العائمة . .

وكنت أنا طول الوقت مشغولا بكل كلمة قالها . .

ثم قطع الصمت قائلا . .

– ألا توافقنى أن هناك أشياء كثيرة لانعرفها فى هذه الدنيا . .

– أنت محق . .

– أنت كعالم آثار مصرى عشت فى القرون البائدة وعاشرت أقواماً ونظماً وعصوراً عفا عليها التاريخ . . . ألم تشعر مرة وأنت تقرأ مخطوطاً من البردى أنك تلمس حقيقة إنسانية مازالت تتنفس حولك . . ألم يعتقد قدماء المصريين فى البعث بعد الموت . .

– نعم لقد اعتقدوا بالإله الواحد وبالروح وبالبعث . .

– دون أن ينزل عليهم دين . .

– نعم . .

– وكان هذا حال أكثر الأمم بدائية وأكثر الأمم حضارة . .

– نعم . .

– ألا يدل هذا على أن وجود الروح حقيقة بديهية لا تحتاج إلى إعمال عقل ، وأنها أمر مفروغ منه وبداهة من بداهات الفطرة . . ألا تبدو هذه الحقيقة غريبة . .

ولقد كانت تبدو هذه الحقيقة غريبة بالفعل . .

وسقط بيننا حاجز الصمت من جديد . .

ولكننا كنا أشد ما نكون تعاطفاً واتصالا فى صمتنا وكأنما نتخاطب كلانا بلغة مهموسة . . ومر وقت لم تكن تسمع فيه إلا

خشخشة النسيم فى الحديقة وطقطقة الثلج فى كأس أمرى خان .

وكانت هناك فكرة تشغلنى وتلح على طول الوقت . .

قلت لصديقى . .

– كلامك عن الروح وإن دل على أنك تؤمن بوجودها إلا أنه يدل أيضًا . . وهذا عجيب . . على أنك لا تؤمن بالروحية على الإطلاق . .

– لا أفهم ماذا تعنى . .

– كلامك عن الروح بأنها أمواج على درجة عالية من الذبذبة معناه أنك تعتقد أن الروح مادة ولكنها مادة أكثر لطفًا وشفافية من مادتنا . . فأنت إذن لست من أنصار الروحية . . وما تقول به هو لون من المادية . . لنسمها المادية الجديدة . .

وابتسم أمرى خان حتى بدت أسنانه البيضاء ثم ضحك قائلا :

– ألم أقل لك إن المعركة تدور وتدور ثم تنتهى إلى مجرد خلافات اسمية . . لن أخيب أملك . . ولن أدور بك فى جدل بيزنطى . . اعتبرنى صاحب نظرية فى المادية الجديدة . . مادية رحبت حتى اتسعت لمعانى الروح والجسد . . سيدى فى صحتك . .

ورفع كأسه مردفًا :

– لن نتعارك على مجرد خلافات اسمية . .

وشعرت فى تلك اللحظة أنه محادث جذاب حقًا وأنى لم أتكبد مشقة السفر إلى الهند عبثًا . . فها هنا صديق نادر سوف أستمتع بمرافقته طوال الرحلة . .

وصارحته بإعجابى ، فاحمر وجهه تواضعًا ولم يرد . .

قلت له :

– إن أملى الوحيد الذى أرجو أن تحققه لى فى بلدك أن تعرفنى على صديقك الفقير « براهما واجيسوارا » . .

– هذا أمل بسيط . . اعتبر طلبك مجابًا . . غدًا بعد الاحتفالات نلتقى « بالبراهما واجيسوارا » . .

– لاشأن لى بالاحتفالات . . لقد جئت من بلدى طالبًا الجلوس بين يدى البراهما . . إنه كل شغلى وشاغلى من اليوم . .

ورأيته يبتسم ابتسامته الواسعة ويقوم محييًا . .

– لك ماتشاء . . أرجو أن تنام جيدًا الليلة لتتحمل أعصابك ماسوف تراه غدًا فى حضرة البراهما . . ولقاؤنا غدًا فى الصباح الباكر . .

وضم كفيه ورفعهما إلى أعلى جبهته علامة وداع . .

وافترقنا . .

٢

فى طريقنا إلى « براهما واجيسوارا » كان أمرى خان يحدثنى عن تاريخ حياة البراهما ويروى لى طفولته المترفة والقصر الكبير الذى كان يعيش فيه فى كلكتا وكيف تلقى تعليمه فى إنجلترا جنباً إلى جنب مع أولاد الملوك والأمراء . . وكيف عاد إلى الهند ليخلع بذلته الأنيقة ويهجر بيته وزوجته ويهيم فى الجبال والغابات حافياً عارياً لاتستر جسده إلا خرقة .

– إن « براهما واجيسوارا » ليس شحاذاً جاهلا كما تصور لك دليلك ، إنه خريج أوكسفورد ويتحدث الإنجليزية بطلاقة ويحيط بالفلسفة الغربية وآدابها إحاطة متخصص وهو عضو فى جمعية مارلبورن الروحية بلندن وله رسالة قيمة فى الرياضيات العليا . .

– ولكنها نهاية عجيبة تلك التى وصل إليها البراهما بعد طول دراسته وتفلسفه . .

– إنه الآن يعيش فى كهف بالجبل وحيداً يصلى طول النهار وفى

وقت الظهيرة ينزل إلى الساحة أمام القلعة الحمراء ليطلع الناس على الحقيقة . .

– وأى حقيقة ! ؟ . .

– لقد دفع ثمنًا كبيرًا فى سبيل الوصول إلى هذه الحقيقة . . حتى الاحترام لم يحصل عليه . . فهاهو أحد مواطنيه ينظر إليه شذرًا كما ينظر إلى حشرة عالقة بسترته . .

– يبدو لى أنه لم يعد يهتم بهذا الاحترام التقليدى وأنه يتطلع إلى مثل أخرى غير المثل التى نتطلع إليها فى حياتنا العادية .

– إن كل مايطلبه من الدنيا هو خبزه كفافه . . وأن يوصل كلمته إلى الدنيا ويمضى . .

وفى أثناء صعودنا الجبل كان يمر بنا أفراد طائفة السيخ بشعورهم المرسلة وعربات الركشا يجرها فقراء الهنود . . والثيران والجواميس فى أعناقها الأجراس . . والأطفال عرايا يستحمون فى الحفر التى ملأها المطر . .

وكان هواء الجبل يرق ويشف كلما صعدنا وتقل مافيه من رطوبة . . . ويعبق بروائح الأزهار .

وكانت الطيور الملونة ترفرف فوق رءوسنا من كل جنس . . والقرود تقفز طليقة على الأشجار وتتخاطف ثمار الجوز . .

وكانت فى الطبيعة بكارة وعذرية تهز القلب . .

وأمام فوهة كهف تدلت عليه تعاريش الأشجار توقف صديقى مشيرًا :

– هنا يسكن « براهما واجيسوارا » . .

وتطايرت العصافير تزقزق ونحن نزيح التعاريش الكثيفة ونتحسس طريقنا إلى الداخل .

وعلى بعد خطوات أمامنا كان يجلس البراهما ، عيناه مغمضتان ويداه معقودتان على صدره وشفتاه تتمتمان بصلاة خافتة .

وفتح عينيه ببطء حينما اقتربنا منه .

وضم أمرى خان كفيه ورفعهما إلى أعلى فى تحية سلام وقدمنى هامسًا :

صديقى الدكتور توفيق ، من القاهرة . .

ورفع البراهما كفيه مضمومتين إلى أعلى يحيينى هامسًا بإنجليزية سليمة :

–مرحبًا بك فى بلادنا . .

وغاب البراهما لحظة فى داخل كهفه ثم عاد يحمل على يديه ورقة خضراء من أوراق الموز عليها بندق ولوز وحمص قدمها إلىّ . .

– تفضل . . أرجو أن تكون بلادنا قد أعجبتك . .

– إن أروع مافى الهند هو « براهما واجيسوارا » . .

– عفواً لعلك تقصد أتعس مافى الهند . . لقد بدأت من أسفل السلم . . وهذا طبيعى على أى حال . .

– بل بدأت من أعلى السلم . .

– هذا إطراء لا أفهم له مبرراً . .

وكان البندق مملحاً وعليه شطة وبدأت أسعل وأعانى من عطش شديد ، وقال البراهما وهو يقودنى من يدى :

– هنا بئر قريبة . . مياهها عذبة باردة شافية . . دعنى أساعدك . .

وغاب فى الداخل لحظة وعاد يحمل جرة ليملأها . . وخرجنا نحن الثلاثة إلى ناحية البئر . .

وكانت بئراً عميقة تنحدر إليها المياه فى جداول رفيعة من السيول التى تهبط على قمة الجبل . . وكانت للبئر سلالم تهبط إلى القاع . . درجاتها منحوتة فى الصخر . .

وكانت البئر مليئة لحافتها من السيول التى نزلت منذ أيام . . وكانت مياهها شفافة تكشف عن قاع بعيد غائر مرصع بالحصى . .

ورأيت « البراهما » يحمل الجرة وينزل درجة درجة فى هدوء وهو يقول إن مياه القاع هى أطهر مافى البئر لأنها بعيدة عن الحشرات والهوام ولايردها الضباع وأنه سيملأ لى الجرة من ماء القاع . . وكان طول الوقت ينزل فى هدوء درجة درجة حتى غمر

الماء صدره ثم عنقه ثم رأسه ثم غطاه تماماً وهو مازال ينزل فى هدوء وكأنه ينزل فى بدروم نادى ليلى .

هل جن الرجل ؟

وأمسكت بصديقى أهتف به . . البراهما غرق . . البراهما أغرق نفسه فى البئر . .

وكان صديقى ينظر إلىّ فى هدوء ويبتسم . . وأنا أصرخ :

– كيف تقف ساكناً هكذا لاتفعل شيئاً والرجل يغرق . .

وأمرى خان يجيب فى هدوء وهو يشير إلى البئر . .

–انظر إنه لايغرق . . إنه مازال يهبط فى هدوء تحت الماء نازلا إلى القاع . . إنه يعرف طريقه جيداً كأنه فى بيته . .

ونظرت إلى البئر . .

كان البراهما مايزال ينزل درجة درجة فى هدوء . . حتى بلغ القاع فجلس القرفصاء فى هدوء وأغمض عينيه وأغرق فى الصلاة ونسى كل شىء . . ثم سكنت حركته تماماً وصرخت :

– « البراهما » مات . . غرق . . اختنق . . لماذا تحملق هكذا ولاتفعل شيئاً . .

وأجاب أمرى خان فى هدوء ، وهو يحملق فى البئر وينظر إلى ساعته :

– البراهما يصلى بقلبه . . هذه عادته دائماً . . يصلى فى كل

مكان تحت الماء ، وفوق الأرض ، وفوق الهواء . .

– ولكن هذا مستحيل . . إنه رجل أخرق . . إنه يختنق هكذا فى ثوان وهو تحت الماء حيث لايوجد أكسيجين يتنفسه . . إن الجسم لايستطيع أن يعيش بدون أكسيجين إلا ثوان معدودة . . هذه قوانين بيولوجية . .

– هذه قوانينك وقوانيني نحن الذين مازلنا فى أولى ابتدائى فى مدرسة الأسرار . . انظر إلى ساعتك وستعلم كم سيبقى البراهما تحت الماء بدون أكسيجين . .

ونظرت إلى ساعتى فى رعب . . كانت قد مرت دقيقتان منذ هبوطه تحت الماء وكان عقرب الدقائق يمشى ببطء ويزحف زحفًا على المينا البيضاء . . وكنت أرتجف من الخوف وقد تثلجت أطرافى . . خمس دقائق . . عشر دقائق . . وهمس أمرى خان . .

– نستطيع أن نجلس فلسنا فى عجلة من أمرنا . . ومثل هذه الصلوات تطول عادة . .

وشدنى من ذراعى وأجلسنى بجواره على حافة البئر وهمس عاتبًا حينما رآنى أرتجف :

– ألم أقل لك يجب أن تنام جيدًا حتى تكون فى حالة عصبية مناسبة . . .

– إن ما أراه هو الجنون بعينه . .

– إن ماتراه هى معجزة العقل وليست معجزة الجنون . . إنك ترى قدرة العقل الفائقة على إيقاف كل عمليات الحياة والسيطرة عليها وإبطائها بالإرادة . .

– ولكن كيف يتنفس . . لقد مضت خمس عشرة دقيقة . . إنه لايمكن أن يكون حيًا . . هذه جريمة انتحار . . لابد من عمل شىء . .

– فكر قليلا بدلا من هذا القلق الذى لاجدوى منه . . حينما تبطئ جميع عمليات الحياة البيولوجية فإنها لاتحتاج من الأكسيجين إلا قدرًا يسيرًا تافهًا . . أقل مما تحتاجه سمكة . . وهو يحصل الآن على هذه الكمية من الأكسيجين الذائب فى الماء ويمتصها عن طريق جلده . . مثل جنين فى بطن أمه . .

– هذه جريمة انتحار . . أنت تهذى . .

ونظرت إلى الساعة واستبد بى الفزع . .

ولم يجد أمرى خان بدًا من إمساكى وتقييد حركتى حتى لاأرتكب حماقة على حد قوله . .

ومضى الوقت رهيبًا . .

وهمست وأنا مقيد بذراعى صديقى القويتين .

– إذا مات سوف أسلمك للبوليس . . أنت الذى قتلته . . أنت مسئول . .

وسمعت صديقى يضحك وينظر فى ساعته هاتفًا :

– ٤٥ دقيقة . . انظر . .

ونظرت إلى البئر ورأيت البراهما يتحرك ببطء صاعدًا البئر درجة درجة وفى يده الجرة . .

وحينما أخرج رأسه من تحت الماء أخذ نفسًا طويلا عميقًا وناولنى الجرة وهو يهمس :

– هذه المياه شافية للأمعاء والكلى . . خذ منها جرعة وافية . .

وكنت أنظر إليه وأتحسسه وأنا غير مصدق .

كيف . . كيف . .

أخذت يديه أقبلهما ولكنه سحبهما بشدة واكتسى خداه بحمرة الخجل . .

– خذ جرعة من هذه المياه . .

– ولكن ياسيدى كيف . . كيف . . كيف فعلت هذا . .

– وهل فعلت شيئًا غريبًا . .

– لقد حطمت جميع القوانين . .

– أنا لم أحطم شيئاً . . لا أحد يستطيع أن يحطم قانونا . . إن ما فعلته كان وفاقاً للقانون . .

– أى قانون .

– القانون الأعلى . . حينما تصعد العصارة فى النخلة إلى أعلى

ضد قانون الجاذبية لعشرات الأقدام فى الهواء . . هل يقول أحد أن النخلة حطمت قانون الجاذبية . . أم هم يقولون فى علم النبات إنها صعدت وفاقاً لقانون أعلى من قانون الجاذبية . .

– إنهم يقولون إنها صعدت وفاقاً لقانون الحياة . .

– وهو أعلى من قانون الجاذبية . . وقانون العقل أعلى من الاثنين وقانون الإرادة أعلى من الكل . . لقد قمت بإثبات تفاضل القوانين بتجربة متواضعة أمامك . . هل قرأت عن تفاضل القوانين فى الرياضة . .

– لا . . لم أقرأ . .

– إنك لم تدرس بما فيه الكفاية . . وهذا كل ما فى الأمر . . خذ جرعة طيبة من هذه المياه . .

وناولنى الجرة . فأخذتها وأنا غير مصدق . . ولمستها وكأنى ألمس شبحاً . . وشربت حتى ارتويت . .

وكانت السحب السوداء قد بدأت تتجمع فوق الجبل ثم انفتحت فجأة كأنها قرب ونزلت سيولا كاسحة .

ورأيت البراهما يرسم الصليب على صدره ، ويتمتم بآية من الإنجيل ، ثم يتمتم بآية من القرآن،ثم يقرأ آية من المزمور الخامس ، ثم يقرأ فى كتاب الداماباد (كتاب الطريق لبوذا) . . ثم يهمس وهو ينظر إلى السيول التى تجرف الأكواخ الصغيرة فى طريقها . .

– هناك أطفال يموتون الآن . . علينا أن ننزل لنساعد من هم فى حاجة إلينا . .

ونزلنا هابطين الجبل . . وبدأ السيل يخف تدريجيًّا حتى توقف تماماً حينما بلغنا أقدام الجبل . .

وسطعت الشمس براقة حامية . .

ونظرت فى دهشة إلى الرجل العجيب الذى يحفظ جميع الكتب السماوية . . ويرتل آيات من جميع الأديان ، ويحيط بالرياضة والعلوم والفلسفة واللغات . .

أى رجل هو . . ؟ !

وعلى أى دين ؟ ! !

ومن أى ملة ؟ !

وعند أقدام الجبل صادفنا الدليل « كاكوما » مع بعض من أعضاء الوفود فى جولة سياحية . . وحينما رآنى فى صحبة البراهما وقف يبرطم ويشير نحونا فى سخرية . .

ورأيت البراهما يضحك ويهمس مشيراً ناحية الرجل . .

– انظر إلى الظل الذى يلقيه الرجل على الأرض . .

ونظرت ناحية « كاكوما » فرأيته يلقى على الأرض ظل حمار . . بأذنين طويلتين مشرعتين ورأس مستطيلة وخشم غليظ . .

ولم أملك نفسى من الضحك عالياً . .

والتفت نحوى أمرى خان وضغط على ذراعى هامساً :
– يكفيك ما رأيت لرحلة اليوم . . لقد اقترب وقت الغداء ولا أظن أنك ستأكل من طعام البراهما . .
– ولم لا . .
فضحك أمرى خان . .
– إن البراهما لا يأكل شيئاً . . إنه يتغذى بنفس الطريقة التى يتنفس بها تحت الماء . .
– ياساتر . .
– أظن أنك لم ترتفع بعد إلى مستوى هذا اللون من الغذاء . .
إلى هناوأعترف أنى مازلت حيواناً وأقل من الحيوان ساعة الغذاء . .
– إذن تعال معى إلى حيث يأكل الحيوانات أمثالنا . .
وهكذا استأذنا من البراهما وانصرفنا بعد أن ضم كل منا كفيه إلى أعلى فى تحية وإجلال واحترام وأخذنى أمرى خان تحت ذراعه قائلاً إنه سيطعمنى « التندورى » . .
– وما هو التندورى . .
– سوف تعرف ما هو التندورى حينما نصل إلى « موتى محل » أشهر مطعم شعبى فى الهند . .
ولكنى كنت مازلت أفكر فى الرجل الذى أغلق عينيه تحت الماء

ونام . . الرجل الذى يحفظ جميع الكتب السماوية ويؤمن بجميع الأديان ويصلى بجميع اللغات . . ويتمدد على الأرض إذا شاء ثم يطير . .

ألا يكون كل هذا حلم . .

ألا تكون كل هذه الرحلة إلى الهند أضغاث أحلام . .

ولكنى سوف آكل التندورى . .

وفى مطعم « موتى محل » قدموا لنا « التندورى » وهى دجاجة كاملة مشوية ومصبوغة بلون أحمر فاقع . .ومعها طبق من الكارى . . وطبق آخر اسمه التابيوكا (طعام يشبه البطاطا) مع أطباق عديدة من الموز المجفف والمانجو والمخلل والمملح . . وأكواب من عصير الدوم الممزوج بالشطة . . وسلطات من كل لون .

وكانت أكلة حامية ملتهبة لاسعة لكثرة ما فيها من بهارات حريفة . .

ولكن ما بعقلى من أسئلة محيرة كانت تلسعنى أكثر . .

سألنى صديقى وهو يأكل الدجاجة بيديه . .

– هل أحببت الأكلة الهندية . .

– لا أفهم لماذا تضعون الشطة فى كل طبق وفى كل صنف من الطعام . .

– لو لم نفعل هذا لنامت أمعاؤنامن شدة الكسل والحر إن

الشطة عندنا قانون بيولوجى . . أعتقد أنه القانون الوحيد الذى لم يستطع صديقنا البراهما أن يعلو عليه . .

– بينى وبينك ، أناأحياناً لا أصدق ما يأتى به ذلك « البراهما » من أفعال . . هذا غير معقول .

– ما هو غير المعقول ؟

– كل ما شاهدته اليوم والأمس غير معقول . . إنه ساحر مشعوذ . . إنى أحياناً أصدق « كاكوما » . . تصور إنه يجعل « كاكوما » يلقى على الأرض ظلا يشبه ظل الحمار . .

– لأن « كاكوما » بالفعل حمار . . هل تعتقد فى تناسخ الأرواح . . أنا أعتقد أن « كاكوما » قد حلت فيه روح حمار . .

– ولكن رأى « كاكوما » يريحنى . . الاعتقاد بأن البراهما ساحر مشعوذ دجال هو رأى مريح جدًّا . . أما الإيمان بالخوارق التى يأتى بها فإنه يؤدى إلى الخبال والجنون . . نعم سوف يصيبنى هذا الرجل بالخبال من طول التفكير فيما يفعله . . أؤكد لك أن « كاكوما » على حق . .

– أنت تريد أن تستريح وحسب . . لا تريد أن تواجه الحقيقة بأى ثمن . .

– إن الثمن لن يكون أقل من الجنون . . هذا الرجل يثير مشكلة أكبر من عقلى . . أكبر من قدرتى .

– الظاهر أن الشطة كانت أكثر من اللازم . . وأنها تسربت إلى دمك . . وإلى مخك . . أنت فى حاجة إلى ملطف . .

وصفق أمرى خان للجرسون وكلمه بالهندية . . فغاب الجرسون لحظة وعاد يحمل صينية عليها عدة أطباق صغيرة بها ينسون وحبهان ومستكة وكمون وسكر نبات . .

وأشار علىّ أمرى خان بأن أمضغ من هذه الأصناف ما أستطيع قائلاً إنها مهدئة ملطفة ومهضمة . .

– المهم ليس ما أستطيع ولكن ما أستسيغ . .

ولم ينتظر أمرى خان أن أختار ماأستسيغ وما أستطيع وإنما ملأ حفانه من كل صنف وعبأ لى جيوبى . . قائلاً إنى سوف أحتاج إلى هذه العطارة الشافية . . وأنى لا أعرف الهند ولا أعرف ماذا يفعله الطعام الهندى فى البطون .

وغادرنا المطعم . .

ولاحظت أن الهنود يقفون على محطات الأتوبيسات فى طوابير منظمة وكانت هذه الظاهرة فريدة فى نوعها وغير مفهومة بالنسبة إلى كثرة مظاهر الفوضى الأخرى فى الحياة اليومية فى الهند . .

وركبنا أول تاكسى . .

وانطلق بنا مسرعاً إلى الفندق يخترق الشوارع الضيقة والأزقة التى يتكدس فيها الزحام . . فى مهارة غير عادية . .

وقال لى أمرى خان إن عدد سكان الهند أكثر من أربعمائة مليون والسبب فى هذه الكثرة أن أغلب السكان ينامون مع غروب الشمس ولا يجدون إلا لعبة واحدة يلعبونها وهى لعبة النسل . . وأن الهندى الفقير لا يفهم ما معنى تحديد النسل فليس عنده شىء آخر يفعله . . وهو يعتمد على السيول والمجاعات والأوبئة فى تأديةمهمة تحديد النسل بحماس ونشاط أكثر منه . .

وسكت أمرى خان فجأة وغمزنى قائلاً وهو يشير أمامه إلى بقرة فى الطريق . .

– انظر ماذا سيفعل سائق التاكسي حينما يقترب من البقرة؟

وما فعله سائق التاكسى كان شيئاً غريبا بالفعل . . فقد أبطأ العربة ثم أوقفها وفتح بابها ونزل ليقف فى إجلال وتوقير انتظاراً لمرور البقرة . . وهو ما لم يفعله لأى بشر . .

وظل واقفاً فى خشية وتبتل حتى مرت البقرة متهادية فى دلال وابتعدت عن الطريق ، ثم عاد إلى كرسيه أمام عجلة القيادة واستأنف رحلته . .

وهمس أمرى خان . .

إن البقرة عندنا كائن مقدس إلهى . .

٣

كنت أذرع غرفتى فى الفندق ذهاباً وجيئة ، وقد استغرقت فى تفكير شديد والساعة تدق نصف الليل حينما طرق الباب ودخل أمرى خان سائلاً فى قلق :

– هل أرسلت فى طلبى ؟

وشعرت بالدهشة ، فقد كنت أفكر فيه طول الوقت . . وكنت على وشك أن أرسل فى طلبه .

وصارحته بالحقيقة ، فابتسم :

– هذا معناه أن هناك اتصال أفكار بيننا . . لقد أصبحت وسيطاً روحيًا بعد خمسة أيام من قدومك إلى الهند . . هذا تقدم تحسد عليه .

وضحكت . .

– وسيطاً روحياً . . هل تعتقد فى هذا الكلام الفارغ . . إن هؤلاء الوسطاء يسمونهم فى بلادنا المشايخ وأهل الله . . ونصفهم

دجالون وأصحاب سوابق .

– حسناً . . اعتبر نفسك واحداً من أهل الله .

– ومن أصحاب السوابق الذين لم يقبض عليهم بعد . . أليس كذلك . .

– إن اكتشاف عشرة أطباء دجالين لا يعنى أن المهنة كلها دجل .

– هل تريد أن تقول لى إنك تعتقد فى خرافة الوسطاء أيضاً .

– ولم لا . . إن هناك ظواهر فى حاجة إلى تفسير . . والوساطة هى تفسيرها الوحيد . . فلماذا لا يكون تفسيراً مقبولاً . . هل تستطيع أن تفسر لى اتصالنا الفكرى منذ لحظات .

– المصادفة . . مجرد المصادفة .

– هذا يعنى أنك تعتبر ما حدث دالا على لا شىء . . مجرد مصادفة .

– نعم .

– ولكن من الملاحظ أن هذه المصادفة تتكرر كثيراً فى حياتنا بدرجة ينفيها قانون المصادفة نفسه . . وأنت تعرف أن علم النفس اعترف بهذه الظاهرة وأدخلها فى عداد ظواهره العلمية تحت اسم « التيليباثى » . .

– إن علم النفس أصبح يدعى أشياء كثيرة هذه الأيام . .

– هل تسمح لى بأن أدخن غليونى .

وأخرج غليوناً فاخراً أشعله .

– إن ميزة الغليون أن دخانه يطرد البعوض . . نستطيع أن نفتح النافذة الآن ، فلا خوف من دخول البعوض فى مثل هذا الظلام . . ومثل هذه المدخنة . . مشتعلة .

وفتح النافذة ، وتدفق نور القمر .

كان القمر بدراً . .

واتكأ أمرى خان على النافذة ومضى يدخن فى شراهة . . ثم قال بعد فترة صمت :

– منذ خمس سنوات كنت فى إنجلترا مع « البراهما واجيسوارا » . . واقترح على البراهما أن نحضر جلسة روحية للوسيطة مسز ماكنزى فى جمعية مارلبورن بلندن ، فوافقت من باب الفضول ، فأنا مثلك لا أؤمن بشىء خارج دائرة حواسى المباشرة . .

وبدأت الجلسة بإطفاء الأنوار وتلاوة بعض الأناشيد الدينية وعزف الأرغن ، ثم سمعت صوت مسز ماكنزى واضحاً . . « إلى السيد أمرى خان الذى يجلس فى الصف الأول . . هناك رسالة من والدك الميت » . . ووقفت مندهشاً فى حين كانت السيدة تكتب ما تمليه عليها الروح بالكتابة التلقائية .

وعندما أضيئت الأنوار . . وطالعت الرسالة لاحظت أنها مكتوبة باللغة السنسكريتية . . وأن إمضاء والدى عليها واضح ؟ لاشك فيه . . وكان مضمون الرسالة باختصار أنه سعيد فى العالم الذى يعيش فيه وأنه يصلى من أجلنا . .

وعندما أطفئت الأنوار من جديد . . قالت الوسيطة . . إن روح السيد الوالد مازالت حاضرة وهى تسألك إن كنت تريد شيئاً . . فقلت لها : أريد أن تصف لى بالتفصيل العالم الذى تعيش فيه . . وبعد فترة صمت . . بدأت روح والدى تلقى وصفاً تفصيليًّا عن العالم الآخر . .

واعتدلت فى مكانى .

وقلت فى فضول وقد أثارتنى القصة :

– حقًّا . . إنه لشىء طريف . أنى لمشوق جدًّا إلى معرفة هذا العالم .

– والغريب أن وصف الروح كان أقرب للوصف العلمى . .

– إن هذا يزيد فضولى . .

– قالت الروح إن العالم الآخر ليس له موقع جغرافى وإنما هو فينا وحولنا . فهو ليس مكاناً . . وإنما هو حالة تختلف فيها درجة الذبذبة . .

– غريب فإن والدك هو الآخر يتكلم بلغة الذبذبات .

– لقد كان أستاذاً فى الطبيعيات فى كلية دلهى .

– هذا حسن . . إن وصفه سيكون دقيقاً ولا شك . .

– قال إن عالم الآخرة شبيه بالدنيا ، ولكنه ألطف وأكثر بهاء ونقاء وتألقاً . . فى الآخرة أرض وسماء وأنهار وأشجار ومبان ومدن ، وفيها فاكهة وطعام ، وفيها مدارس ومعاهد ومسارح وموسيقى وفنون . . والإنسان فيها لا يبنى بيوتاً بمواد الأسمنت والطوب والحجارة ، وإنما هو يبنى بعقله وخياله وإرادته الخالقة . . يتمنى فتتحقق أمنياته بدون مادة وبدون أدوات ، فتقوم مبان وفيلات وعمائر وقصور من تلقاء نفسها . . وهو حين يأكل يتذوق فقط ، فيشعر بطعم الفاكهة ولكنها لا تنزل فى أحشائه لأنه بلا أحشاء . . وهو لا يلبث أن يقلع عن عادة الأكل هذه حينما يفيق من أوهامه الأرضية التى جاء بها بعد أن انسلخ عن جسده ويكتسب عادة الروح التى تقتات بالحب وتتزود بالعمل الصالح .

والأرواح تتكلم مع بعضها بدون لغة . . تنقل الأفكار وتتلقاها مباشرة عن الآخرين . . وهى تنتقل فى الفضاء بسرعة الفكر . . بمجرد أن تفكر الروح فى مكان تنتقل إليه بدون مواصلات . . ولكن الروح قد تبنى قارباً للنزهة إذا كانت مازالت متعلقة بعاداتها الأرضية .

ولا يوجد ظلام فى الآخرة . . وإنما هناك نهار متألق وليل قصير

تستضىء سماؤه طول الوقت بشفق بديع .

وهناك أمراض وآلام فى عالم الروح ، وكلها آلام نفسية وعذابات ضمير . . ويكون علاجها بإدراك الشخص لنفسه واكتشافه لحقيقته من خلال العذاب . . وقد يتم ذلك بمساعدة طبيب من أطباء الروح ، ويكون فى العادة روحاً هادية طيبة .

والموسيقى تؤدى فى العالم الآخر بالفكر ، وتنتقل بالفكر بدون آلات . . والنحت والرسم يؤديان بالخلق الفكرى المباشر .

ولا يحدث للروح موت . . وإنما يحدث لها انتقال إلى درجة أعلى وإلى عالم أبهى ، وذلك بأن ترتفع ذبذبتها كلما اقتربت من الكمال ، فتحلق إلى عالم أكثر شفافية ، حتى تبلغ غاية تطورها وكمالها ، فتصل إلى الروح الأعظم وتندمج فيه . .

وقد تتناسخ الروح وتعود إلى الأرض وإلى حياة اللحم والدم لتعانى مرحلة ثانية من مراحل الفداء والتضحية والألم ، لتجنى الخبرة والحكمة ، إذا كانت الخبرة والحكمة مازالت تنقصها .

والروح فى العادةتقوى بمرور الزمن ، ولا تضعف ، لأنها تزداد نضجاً . .

والحب قد يؤدى إلى اندماج روحين فى روح واحدة . .

والروح فى الآخرة تحتفظ بذاكرتها كاملة ، وهى تستطيع أن تستعيد كل تفاصيل حياتها الأرضية ، بما فيها من خطايا وذنوب . .

وتعانى الندم والألم حتى تتطهر . .

وبعض الأرواح تستطيع أن تتخاطب من خلال الأحلام بأقاربها من الأرضيين . .

وبعض الأرواح الشريرة تلبس الأجسام الأرضية وتصيبها باللوثة والجنون والأمراض المستعصية . .

وبعض الأرواح الخيرة تلهم أحبابها الخير والمحبة والتوفيق والبركة . .

وفى العالم الآخر حيوانات مفترسة ، ولكنها لاتفترس ، لأنها فقدت الرغبة فى الطعام ، فترى الأسد نائماً فى حضن الحمل . . وهناك فراشات وحشرات وحيوانات مستأنسة من كل نوع وزهور جميلة من كل لون . .

وليس فى الآخرة دول ولا سياسات ولاحكام . . لأن الأرواح يحكمها قانون التوافق الطبيعى ، فكل روح فى مرتبتها المتفقة مع ما بلغته من نضج وحكمة وخير . .

إن الحكمة والمحبة تهبها الذبذبة العالية التى تساعدها على التحليق إلى المرتبة الأرفع التى تناسبها على حين لا تستطيع روح منحطة أن تبلغ هذه الذروة ، فتظل فى مهاويها السفلية . .

قانون التوافق يعمل فى إحقاق العدالة بدون نظم سياسية

وبدون حكام . . فكل واحد يأخذمكانه الصحيح ولا يستطيع أن يتجاوزه . .

ولا توجد حروب ، لأن صراع الخير والشر يتخد مظهرا عقليًّا ضمائريًّا . .

ولا يوجد إكراه ولا إجبار ، وإنما حرية مطلقة .

والحرية هناك فى التوافق مع القانون السماوى . .

ولا كهولة ولا شيخوخة فى الآخرة ، فالأرواح تعود إلى شبابها وتكوينها الناضر .

والأطفال ينمون بسرعة إلى طور الشباب . .

وسكت أمرى خان لحظة ، ومضى يدخن ، فى حين سألت أنا فى نشوة . .

– وماذا عن الجنة والجحيم . .

– الجحيم فى الآخرة ليس دائماً الحريق ولا النار ، وإنما هو عذاب له صور شتّى . .

لحظة الانفصال بالموت ، تكون لحظة أليمة طويلة ، بالنسبة للأرواح الشريرة . . وبعدالموت تظل الروح الشريرة تعانى من عاداتها الأرضية ، فيخيل لها أنها مازالت لها جسد ، وبالتالى تشعر بالعذابات الجسدية التى كانت تعانيها على الأرض . . وتشعر بالجوع وبالتعب وبالأمراض وبالأوجاع البدنية . . وقد تستمر هذه الفترة

سنوات وقرون حتى تدرك خلاصها . .

وتظل ذنوب الروح الشريرة شاخصة أمامها طول الوقت . . فالقاتل يظل يرى صور ضحاياه ويسمع أنينهم . .

ولا يكون عذاب الروح بصدور حكم محكمة بالإدانة ، وإنما هو عذاب تلقائى ، نتيجة لنقصها . . مثل التخمة ، نتيجة الإفراط ، والملل نتيجة الكسل . .

العذاب جزء من قانون التوافق السماوى . . لا إكراه فيه ولا إجبار . . لكل بحسب عمله .

وبعض الأرواح الشريرة تعيش فى عزلة وظلمة مع الأرواح الشريرة أمثالها . . حياة كلها أحقاد وأضغان . .

ويكون عذاب الأرواح المنافقة بافتضاحها ، وعذاب الأرواح المتكبرة بهوانها ،أمام من كانت تحقرهم ، وعذاب الأرواح الأنانية بحياتها فى وحدة ، حيث لا تجد أحداً يعنى بأمرها أويفكر فيها .

ودخائل النفوس تكون مكشوفة لأصحابها فى الآخرة ، وهذا لون آخر من ألوان عذاب الأرواح الشريرة ، فهى تعيش فى مكاشفة تامةلنفوسها المظلمة وخطاياها . .

وبعض الأرواح الشريرة تعود بغير انقطاع إلى حيث دفنت جثتها ، حيث تحلق حول القبر وتشعر بأجسامها تتحلل والدود ينخر فيها . وقد تظل تعانى هذا الارتباط الوهمى سنوات .

وتظل الأرواح التى انتحرت تعانى من لحظة انتحارها . وقد روت روح انتحرت بإلقاء نفسها من برج . . أنها ظلت تعيش فى حالة شعور مخيف بأنها تهوى من حالق ، وأنها على وشك الارتطام بالصخر . . وظل هذا الشعور الفظيع يلازمها أكثر من مائة سنة . .

وبعض الأرواح الشريرة يقضى عليها بالعودة إلى لعنة الميلاد ، فتتناسخ من جديد فى اللحم والدم ، وتعود إلى الحياة الأرضية لتكفر عن آثامها . .

وبعض الأرواح المخطئة تشعر بالنور الباهر ، كأسياخ من حديد تخترقها وتغشى بصرها . وبعض الأرواح تعيش فى نيران حقيقة . .

ولكن عذاب الأرواح غالباً ، عذاب موقوت محدود له آخر . . وهو ينتهى فى العادة لحظة يقظة الروح وندمها ، واكتشافها لجهالتها وترديها . . فى تلك اللحظة ، تخف أثقالها ، وترتفع ذبذبتها ، فتحلق إلى عالم أجمل وأكمل . . ولذا كان عذاب الآخرة لوناً من التطور والارتقاء والتعلم ، لا ضرباً من التنكيل والانتقام . . فهو عذاب لفترة ولاتستمر فى النار إلا الأرواح النارية بالفعل . .

أما الجنة ، فهى حياة الروح ، فى محبة وعمل وارتقاء دائم ، إلى آفاق لا نهائية ، حيث تبلغ الروح الأعظم وتندمج فيه . .

وسكت أمرى خان ، ومضى يدخن ويتطلع إلى القمر . . بينما قلت فى استغراب . .

– هذه الصورة عن العالم الآخر تشبه فكرة أفلاطون عن عالم المثل . . إنها أشبه بالخيال الأرضي منها بالخيال الروحي . . أنا أعتقد أن ماقالته الوسيطة مسز ماكنزى هى تصوراتها الشخصية وقراءاتها الشخصية فى الفلسفة والتصوف . . وأن ما روته عن العالم الآخر ، هو تخميناتها ، ولا دخل للأرواح فى الأمر . .

– من الجائز . . إنماأحببت أن أطلعك على ما سمعت . . ولا أنكر أنى فكرت مثلك ساعتها . . برغم الرسالة المكتوبة بالسنسكريتية وعليها توقيع والدى . .

– إن الوسطاء المحترفين فى العادة يتقنون اللغات القديمة . . فهذه تجارتهم الرابحة . . وهم يعرفون كيف يروجونها . .

– لقد كانت هذه نظريتى . . ولكنى عدت فقلت لنفسى . . ولماذا لايكون أفلاطون فى نظريته عن المثل . . وسيطًا ملهمًا أكثر منه فيلسوف . . ألا يمكن أن نعتبر الشعر والفلسفة والموسيقى إلهامات تصلنا فى لحظات الصفاء . . شأنها شأن أية وساطة . . ويكون أفلاطون فى جمهوريته فى هذه الحالة يروى حقيقة أكثر مما يروى فرضًا فلسفيًا أو ربما شيء من الحقيقة . .

– هذا غاية فى الشطح . . لم يبق إلا أن تصنع لى أجنحة وأنا واقف بجوارك . .

– صدقنى ، إن لنا أجنحة خفية ، هى عقولنا وأرواحنا . .

– سوف تتعب نفسك كثيرًا ياصديق . . أما أنا فقد أرحت نفسى من كل هذه الفروض . . أنا بشر من لحم ودم وحواس . . . . ولا شىء حقيق سوى الواقع اليومى الذى أعيشه . .

–وماذا تقول فيما يفعله « البراهما » . . أليس واقعًا لمسته بيديك . .

– لقد اعتبرت مارأيت ، شعوذة واحتيالا ، وخداع حواس ، وأرحت نفسى . .

حينما تبدأ بتكذيب حواسك . . فقد بدأت قصة تعبك ، صدقنى . .

لاراحة فى هذا الطريق الذى سلكته أبدًا . .

– إنى أفضل أن أفكر على طريقة كاكوما . .

– لاتنس أن جميع العلوم اليقينية التى تعتز بها قد بدأت على شكل خرافات وأساطير ، ولو تتبعت منشأ الطب وعلم النفس والطبيعة والكيميا والذرة ، لعجبت فى أنها كلها بدأت بتخمينات وشطحات وأحاجى ، مثل هذه الأحاجى التى يقدمها علم الأرواح تمامًا . .

– حسنًا . . سوف أنتظر حتى يصبح علم الأرواح علمًا يقينيًا ،

بدلا من أن أتعب نفسى فى الأحاجى . .

– ولماذا لاتعمل شيئًا بدلا من الانتظار . . فقد نستطيع – إذا فكرنا سويًا – أن نصل إلى شىء . . وأن نختصر طريق الظلام الذى نسير فيه . .

هل نسيت أن المجال المغناطيسى للأرض ظل مجهولا حتى اكتشف بوساطة الحجر المغناطيسى مصادفة . . وبالمثل كان الوسطاء هم البوصلة التى كشفت المجال الروحى للإنسان هكذا بالمصادفة أيضًا . . مصادفة الإلهام . .

– إنى رجل علم . . أعطنى مقدمات معقولة أولا ، وأنا أسير معك إلى آخر الدنيا . .

أما أن أبدأ رحلتى بلا معقول . . فإن النهاية سوف تكون معروفة سلفًا . . إنها مستشفى المجاذيب . .

– فكر قليلا . . إن كل مارأيت وسمعت هو المعقول بعينه . . كل مافى الأمر أنك يجب أن تطرح عنك التفكير العادى والمبتذل والمألوف . . وتفكر بعمق . . بعمق طفل ينظر إلى الدنيا من جديد . .

– بعمق طفل . . لقد قلتها . .

– إننا مازلنا فى طفولة الفكر ، صدقنى . . وهذا النضج الذى يصوره لنا اليقين . . هو نضج زائف . . فلايقين هناك . . أكثر من

يقين للترجيح والاحتمال . .

– مازلت أفضل طريقة «كاكوما» في النظر إلى الأمور . . ليس لدينا وقت للشطح فى المجهول . . هناك أمور عاجلة تنتظرنا . . والعالم أفقر وأتعس من أن نضيع وقته فى سنوات أخرى من التخمين . .

– أعتقد أن هذا الكلام يضع نهاية واضحة لحديثنا . .

ونظر إلى ساعته مردفًا . .

– لقد أسهرتك أكثر مما ينبغى هذه الليلة . . لقد فات موعد نومك بكثير . . أستأذنك . . وأرجو لك نومًا طيبًا .

قال هذا ورفع كفيه مضمومتين فى تحية وداع وانصرف . .

وبقيت وحدى فى الغرفة مع القمر . . والصمت . . والظلام . . وحفيف الأغصان فى الحديقة . . وتسللت إلى مفاصلى رعدة . . وكدت أفتح الباب وأجرى خلفه . . لولا أن تماسكت بقوة . .

إن فى جو الهند شيئًا لايمكن أن يوصف .

أو لعله الوهم . . وهم القراءات العديدة التى قرأتها عن روحانية الهند .

فهاهو قمر مثل كل الأقمار . . وحديقة مثل كل الحدائق . . وليل مثل أى ليل فى الدنيا . . وفندق مثل كل الفنادق . . وإنما

الذى يختلف هو عقلى الذى فقد وضوحه واتزانه . .

وتمددت فى فراشى وعينى إلى النافذة أستأنس بضوء القمر . .

وسرى الخدر فى عقلى ، والتنميل فى أطرافى ، وشعرت أنى أموت من التعب والإرهاق ، وطول التفكير ، وأن رأسى بها ثقالة من حديد ، وأنها تتضخم . . وتتضخم . . وأنى لاأستطيع رفعها من الوسادة . . وأن أطرافى تتيبس وتتخشب ، فلاأستطيع لها حراكًا . . وأنى أتحول إلى مجرد وعى سجين فى جاكتة جبس . .

وفجأة داهمنى إحساس غير معقول ، بأن النافذة التى أنظر منها هى فى الجهة الغربية من الحجرة . . فى حين أن نافذة غرفتى على ما أعلم ، هى فى الجهة الشرقية . . إذن فأنا فى غرفة أخرى غير غرفتى . . ونظرت فى ذعر إلى الحائط . . كانت هناك صورة كبيرة لطاغور . . إنها ليست غرفتى بالفعل . . فلم تكن بغرفتى صورة لطاغور . . لقد كانت هناك صورة لطاغور ، نفس الصورة بالإطار المذهب ، ولكن فى غرفة أمرى خان . . وكان هناك تمثال نصفى لغاندى . . هاهو بالفعل . .

وغمغمت فى ذعر . . لقد انتقلت إلى غرفة أمرى خان . . كيف . . ومتى ؟

وصرخت من الذعر . .

وخرجت صرختى مبحوحة خافتة مرعبة . .

٤

فتحت عيني فوجدت أمري خان واقفًا عند رأسي ، وفي يده منديل به عطور هندية حادة ، يضعه عند أنفي مبتسمًا . . همست في ضعف . .

– أين أنا . .

– أنت في غرفتك في فندك أشوكا ، وفي أمان ، بين أصدقائك وأحبابك . .

وتضعضعت حواسي ، ورأيت نفسي أبكي فجأة . . أبكي في تعاسة كطفل يتيم ضائع حائر بلاأهل . .

– أنت تبكي . . هذا غير معقول .

– لقد كدت أفقد عقلي في هذه اللحظات القليلة التي مضت . . كاد يودي بي كابوس فظيع . . خيل إلى أني انتقلت فجأة ، وأني في مكان غير المكان . . كنت أرى هنا تمثالا ، نفس التمثال الذي على مكتبك . . وعلى الحائط صورة كبيرة لطاغور ، في

إطار مذهب ، نفس الصورة والإطار التى فى غرفتك . . هكذا فى لحظة . . وكأنى هواء . . وكأنى تخللت الجدران وانتقلت إليك دون أن أبرح مكانى . . كان شيئًا مخيفًا . .

– نحن فى عصر تنتقل فيه كل الأشياء بسهولة . . صورنا تنتقل بالتليفزيون . . وأصواتنا بالراديو . . ورسائلنا بالبرق . .

لم يعد عجيبًا أن تنتقل أرواحنا . .

– لم أعد أعجب لأى شىء أراه فى بلادكم . . لو قلت لى أن روحى خرجت منذ لحظات ، لصدقتك ، فقد خيل إلىّ ساعتها أن روحى خرجت منى . .

– لقد كنت مغمى عليك تمامًا . .

– لعلى مت نصف موت . .

ورحت أتحسس نفسى غير مصدق . .

– تصور لقد خيل لى أنى هواء . . وأرق من الهواء . .

– نحن هواء . . وأرق من الهواء . . ألا تنفذ فينا الإشعاعات ، كأنها تنفذ فى مادة خلاء . . إن بصرنا كليل جدًا . . إننا لانرى أنفسنا على حقيقتها . .

– إننا مخلوقات جديرة بالإشفاق ، مخلوقات عمياء بكماء صماء . .

ولقد كنت أشعر ساعتها أنى أصبحت ذلك المخلوق الجدير بالإشفاق فعلا ، كنت أشعر أنى فى حاجة إلى يد تأخذ بى إلى شاطئ أمان . . وأنى أتقدم زحفًا منذ آلاف السنين . . وأنى تعبت . .

– لقد تعبت . . تعبت . . وأريد أن أعود إلى بلدى . . لن أبقى فى بلدكم بعد الآن .

– بهذه السرعة . . إنك لم تكد تقضى بيننا أيامًا . . إنك لم تر شيئًا من الهند . .

– لقد رأيت كل الهند . . لقد رأيت منها مايكفينى وزيادة . . لقد غيرتنى هذه الأيام القليلة . . بدلتنى . . جعلت منى إنسانًا غير الإنسان . . لقد اكتشفت أنى لم أكن أعيش . . لم أكن أفهم شيئًا . .

ومددت له يدى . .

كنت عطشانًا إلى اليد الهادية التى تأخذ بيدى .

قلت له أنى أريد أن ألتقى بالبراهما . . أريد أن أحج إليه . . وألتمس منه النصح والبركة ، وأتعلم منه شيئاً جديراً بالعلم ، قبل أن أعود إلى بلدى . .

وأمسكت بيده وتطلعت إليه فى قلق . .

– أتظن أننا نجد « البراهما » فى كهفه فى هذه الساعة المبكرة . .

قال بإشفاق ، وهو ينظر إلى عينى اللهفانتين :

– نعم إنها ساعة صلواته فى العادة . .

– خذنى إليه . . إنى فى أشد الحاجة إلى كلماته . .

* * *

وفى كهف « البراهما » ، جلست عند قدمى الرجل الصالح . .

وكانت عيناى تدمعان انفعالا . .

قلت له : إنى أريد أن أتعلم . . أريد أن أفهم . . أريد منه أن يأخذ بيدى ويدلنى على طريق النجاة ، ويقرأ على من آيات كتابه . .

قال الرجل الصالح فى نبرات جليلة . .

– اعلم أن روح الله تملأ الوجود . . وأن كل ما فى العالم من فن وفكر وعلم وجمال ، هى إذاعات من هذه الروح الكلية الخالقة . . وما روحك إلا قبس من هذه الروح الكبرى ، تتلقى منها . . أنت أحد آحاد الأحد الأكبر .

اعلم أن هذه الروح الكبرى ليست بشراً ، ولكنها الذات العليا ، والقانون الأسمى ، لكل الوجود . . اعلم أن الحياة لا تصلح بغير صلاة . .

وأن صلاتك لا تكون نافعة ، إلا حينما تنسى أنك تصلى ،

وتتوجه بكليتك إلى روح الوجود فى صرخة استنجاد واستغاثة ودهشة وإعجاب ، وحب وابتهال مأخوذ . . فالصلاة ليست كلمة تتفوه بها ، وإنما هى شعور بالقداسة والافتتان والإجلال والحب والفناء ، فى المقام الإلهى الأرفع ، وإدراك بأننا قطرة من النبع الصافى اللانهائى ، نصدر عنه ونعود إليه . .

اعبد إلهك ، إلهاً موضوعيًّا ، تتمثل فيه وتصدر عنه جميع القوانين الطبيعية الحكيمة ، التى يكتشفها العلم ببطء ومشقة . وحاول أن تعيش فى توافق مع نواميسه الحكيمة ، فهذه هى حريتك .

وتذكر أن الفضلاء من جميع الأديان ، هم فى الحقيقة على دين واحد . .

تذكر أنك تبتعد عن روح الله ، كلما تقربت إليه بالطقوس الروتينية ، والكهانات والمراسيم ، والكلمات الخالية من الشعور . .

الدين الحقيقى هو أن تعبر عن حبك للروح الأعظم ، بحبك لأطفاله . .

وحينما تنسى ذاتك فى خدمة الآخرين ، سوف تنمو ذاتك وتتعاظم فى التركيب والقوة . .

بالعمل والمحبة وخدمة الآخرين ، تعبد إلهك ، وتشعر بجماله .

كما أنك لا تستطيع أن تكون سعيداً ، وأنت فى أسرة شقية ،

فكذلك لا يمكن أن تكون سعيداً ، وأنت فى مجتمع شقى وعالم شقى . .

أنت مسئول لما يحدث لمواطن لك فى آخر الدنيا . . هذا هو الدين . . كل ما تقوله لك أنانيتك شر ، لأنها تجعلك فى عزلة عن الآخرين ، وتحرم روحك من غذائها الطبيعى ، باتصالها بالحياة فى جميع مجالاتها . .

أنانيتك تفقرك وتجدب روحك .

تذكر أن السعادة ليست حظًّا ، ولا بختاً ، وإنما هى قدرة . .

أبواب السعادة لا تفتح إلا من الداخل . . من داخل نفسك . . السعادة تجيئك من الطريقة التى تنظر بها إلى الدنيا ، ومن الطريقة التى تسلك بها سبيلك .

موقفك المشبع بالحب والتفاؤل يحول عذابك إلى كفاح لذيذ ، ويحول محاربتك للشر ، إلى بطولة ونبل . .

إحساسك بالجمال يجعل الطبيعة تنبض من حولك بالموسيقى والنغم . .

تفتحك للمعرفة يجعل رحلتك الشاقة ، نزهة مشوقة مذهلة .

تواضعك يجعل الفشل لا ينال منك . .

تفانيك فى عملك ، يجنبك ملل الفراغ وقنوطه وضجره ، ويفتح لك كنوز المعرفة ، وييسر لك مباهج الاكتشاف ونشوة

النصر . لا تنظر إلى حظك من أى شىء تتجنب مشاعر الحرمان والإحباط ،والخسران . .

تذكر أن الدين الحق ، لا يناقض العلم ، لأن الدين الحق هو منتهى العلم .

إن نظام الكون لم يرتعد أمام منظار جاليليو ، وإنما الذى ارتعد ، هو نظام الكهنوت . .

إن عصرنا فى حاجة إلى ديانة عصرية إنسانية مصفاة من أدران الكهانات ، متفتحة للجديد من كل علم ومعرفة ، خالية من التعصب والعنصرية . . عالمية . . واحدة . . فالله واحد ونواميسه واحدة . .

وسكت الرجل الصالح وأغرق فى تأمله . .

قلت له سائلا فى خشوع . .

– أريد أن أفهم ما الحياة . . وما العقل . . ومن أنا . . وهل أنا إلا مخى الذى يفكر ويتكلم ! ؟ . .

قال فى ابتسامة إشفاق :

– إذا كانت الساعة هى التى تفرز الزمن لقلت إن مخك هو الذى يفرز التفكير ، ولكن الساعة لا تفرز الزمن . . ما هى إلا وسيلة للتعبير . . وكذلك مخك ، ما هو إلا خادم يعبر عن قليل من كثير مما بعقلك . . وما التلازم بين ما يحدث لمخك من أمراض ،

وما يحدث لفكرك من اضطراب ، إلا تلازم صورى ، كالتلازم بين مسمار ، وبين ثوب معلق عليه . . إذا اهتز المسمار ، اهتز الثوب ، وإذا وقع المسمار على الأرض ، وقع الثوب . . ومع ذلك فالثوب شيء والمسمار شيء آخر . . وكذلك عقلك ، يتجاوز حياتك الدماغية ، ويبقى بعد فناء الدماغ . . لأنه شيء ، والدماغ شيء آخر . .

قلت فى خشوع :

– والحياة . . ما الحياة . . ومن أين . . وإلى أين تنتهى بنا هذه الدوامة . .

قال « البراهما » مبتسماً :

– كان أهل الغال أيام الإسكندر ، يتأملون النجوم على حسبان أنها نقوش فى السقف . .

ومازلنا إلى الآن نتأمل الحياة ، على أنها ظواهر ونقوش ، حدودها ما نلمسه منها بالحواس ، لا نحاول أن ننفذ إلى باطنها وجوهرها . .

أن اعتقادنا بأن الحياة انفجار كونى ، نشأ بالمصادفة ، مثل اعتقادنا بأن انفجاراً فى مطبعة ، يمكن أن يؤدى بالمصادفة إلى أن تتراص الحروف على شكل قصيدة لطاغور ، واعتقادنا بأن تطور الحياة وارتقاءها كان بإرشاد الظروف المادية وحدها ، لا يفسر تطور

الحياة أبداً . . إنه قد يفسر ارتقاءها إلى فصائل أقوى وأقدر ، ولكن لا يفسر ارتقاءها إلى فصائل ، أجمل وأرشق وألطف . . . فما وجه المنفعة هنا . .

وإذا اعتبرنا أن الفصائل الأجمل ، جاءت نتيجة الانتقاء الجنسى . . فالسؤال يظل مطروحاً . . ما وجه المنفعة فى اختيار الذكر للأنثى الأجمل . . وأين العامل المادى هنا . .

إن التفسير الأكثر قبولا ، أن هذه المادة الحيوانية ، كان يرشدها عقل ، يوجهها ويهديها ويعطيها الشكل والجسم ، مهما بدا فى الظاهر محكوماً بها ، ولذا كانت عملية التطور بطيئة غاية البطء .

إن التفكير المادى ناقص عاجز ، لا يفسر لنا حياتنا ، وهو لا يعطينا إلا عمراً محدوداً شاحباً ، نهايته الموت بلا بعث ، بلا عزاء ، بلا أمل . .

الموت ، ثم الظلام ، ثم لا شىء . .

نظرة قاتمة تسلب الفرد قدسيته . .

هم يعيبون على الشرق أنه سادر فى أديانه وروحانياته . .

ولكن الأديان ردت للفرد كرامته وقداسته ، واعتبرته حقيقة مطلقة باقية ، حينما أعطته روحاً تعلو على الموت وتتحدى الفناء . . وهى بهذا أعطته العزاء والأمل ، وجعلت من عذابه كفارة ، ومن آلامه فداء . .

ألا تشعر بعبقرية الكون ونظامه وجماله وعدالته من خلال هذه النظرة الدينية . .

ألا تشعر بالراحة ، لأن هناك ناموساً عادلاً يشملك ويرفعك ، حرًّا مسئولا باقياً خالداً على الزمان . .

أليس هذا دليل من داخلك على صدق الخلود .

– أهى الروحية مرة أخرى . .

ابتسم « البراهما » فى سماحة قائلاً :

سمها ماتشاء . . لتكن « مادية » ، « مادية جديدة » أرق وألطف وأرحب وأذكى من المادية التى يفكرون بها فى الغرب . . نحن لا نريد أن نتعارك على أسماء . .

اعتبر إن روحنا ما هى إلا مادة إذا كان هذا يسرك . . مادة فى حالة جديدة لا نعرفها . .

– لقد عقدت بذلك هدنة بينى وبين عقلى ، سوف أذكر لك جميلك مدى التاريخ . . لقد صالحتنى على نفسى . .

ولثمت طرف ردائه . .

– أنت أجمل مافى الهند . .

– ما أنا إلا تراب الهند .

– سوف يسعدنى أن أعود إلى بلدى بنفحة من هذا التراب المقدس . .

وكان هذا آخر يوم لى فى الهند .

وحينما كنت أضع قدمى فى الطائرة بعد ذلك بساعات ، عائداً إلى بلدى ، كان أمرى خان فى وداعى ، وكان يقدم لى منديلا ملفوفاً . .

– إنها صرة من الملح هدية من « البراهما » . .

وأخذت المنديل بيد ضنينة وأنا أهمس . .

– أشكرك على هذه البركة . . سوف يكون هذا الملح . . ملح حياتى ونورها . .

وصعدت سلم الطائرة وأنا أضمه إلى صدرى .

٥

وكانت تنتظرنى أخبار مثيرة لحظة وصولى إلى القاهرة . . فقد وجدت على مكتبى بمصلحة الآثار عدداً من أوامر التكليف بالانتقال فوراً إلى مناطق الحفائر فى سقارة والأهرام وتل العمارنة ، لمعاينة الكشوف الأثرية التى تمت هناك ، ولقراءة البرديات الهيروغليفية التى عثر عليها ، وكان معنى هذا أن أحزم حقيبتى وأسافر فى الحال . . فلم يكن هناك من يحل محلى فى هذه المهمة ، كخبير متخصص فى اللغة القديمة . .

وفى الخرائب والأنقاض وبين الحطام وبين أكوام الرديم حول المصاطب الفرعونية القديمة ، شعرت أنى أعود إلى عالمى . . ذلك العالم البائد الذى عاشرته عشرين عاماً من عملى مفتشاً بالآثار .

وكان العمال يشيرون إلى البئر الأثرية التى اكتشفت . .

بئر محفورة فى الصخر ، تنزل عمودية مسافة أربعين متراً .

وكان العمال لايزالون يكسحون الرمال والحصى من داخلها ،

ويكشفون عن درجات السلم التى تصل إلى قاعها . .

وفى القاع كنت أرى عبدالرسول يصفر فى فرح وهو يدق بفأسه على الباب السرى الذى اكتشفه فى قاع البئر ، ويزيح السقاطة الحجرية ، فاتحاً الطريق إلى غرفة الدفن . .

وكنت أنزل الدرجات فى حذر ، ومعى معاون الآثار يتحدث فى انفعال عن التحف التى عثر عليها . . أساور وعقود وخواتيم من الذهب والفضة . مكاحل وأدوات زينة ، من بينها مكشط للأظافر لإزالة الزوائد ، من النحاس ، مقبضه مرصع باللازورد . . أوانى من الديوريت والمرمر . . لوحات من العاج ، عليها مناظر للحياة الملكية ، محفورة حفراً بارزاً ، تماثيل من الأبنوس . . أقمشة ملونة من الكتان . . حبوب من القمح مازالت على حالتها ، وجدت محفوظة فى قوارير . مراوح وعصى وكراسى من الخشب والجلد . . آلات نفخ موسيقية . .

وتقدمنى المعاون داخلا من الباب السرى إلى غرفة الدفن . .

وكان أول ما لفت نظرى أن التحف مكومة فى غير نظام حول التابوت .

وقال المعاون إنها عثر عليها بهذه الصورة .

وكان التابوت المرمر فارغاً ومغطى ، ولا أثر فيه لأى مومياء أو لأى مخلفات تدل على مومياء .

وكان الأمر محيراً .

معنى هذا أن المومياء سرقت . .

ولكن إذا كانت المومياء سرقت ، فكيف غفل اللصوص عن هذا المتاع الثمين المكوم بجوارها .

ولماذا كومت هذه التحف النادرة على هذه الصورة .

ولماذا لم تسرقها اليد التى كومتها . .

وكيف يسرق السارق جثة لا تنفعه بشىء ، ويترك ذهباً بهذه القيمة . .كان هناك تفسير واحد . . أن المومياء كانت مدفونة فى مقبرة أخرى اقتحمها اللصوص وأتلفوا الجثة (على عادة اللصوص أيام الفراعنة) وسرقوا ما أمكنهم سرقته من متاع المقبرة . . ثم فطن الكهنة المشرفون إلى أمر السرقة وما حاق بالجثة من تلف ، فنقلوا التابوت الفارغ إلى مقره الجديد وغطوه ، وأخفوا أمر السرقة عن فرعون ، وكوموا ما تبقى من متاع حول التابوت ، وتركوا كل شىء فى فوضى ، لأنهم كانوا فى عجلة من أمرهم ، وفى رعب من أن يكتشف فرعون ما حدث فيعاقبهم عقاباً شديداً على تقصيرهم فى حراسة المقابر (ولم يكن لكهنة المقابر عمل فى تلك الأيام سوى حراستها من اللصوص) .

ومعنى هذا أن التابوت لشخص عظيم القدر .

وإذا كان هذاالمتاع هو ما تبقى من المقبرة بعد سرقتها ، فلابد أنه

كان متاعاً فخماً هائلاً . . وهذا يؤكد مرة أخرى أهمية الميت وعلو مقداره . .

ولاحظت أن غرفة الدفن مبطنة بكتل من خشب الأرز . . وهو خشب كان يجلبه الفراعنة ، بإرسال بعثات إلى جبل لبنان . . ومن بين التماثيل التى عثرت عليها فى الكومة حول التابوت ، كانت هناك تماثيل صغيرة : لطحان ، وعجانة ، وخباز ، وكاتب ، وجوارى وراقصات ، وحاملات جرار ، ووصيفات . .

كنت أمام صاحب قصر ، ربما وزير ، أو أمير ، أو ملك ، فهؤلاء هم الذين كانوا يدفنون بهذه الأبهة ، ومعهم تماثيل لحاشيتهم وخدمهم وموظفو ضياعهم ، حتى إذا بعثوا بعد الموت ، كما كانت تقول لهم تعاليمهم القديمة ، وجدوا أنفسهم يستأنفون حياتهم الأولى بكامل أبهتها ، بين خدمهم وحشمهم . .

وطبقاً للأساطير الفرعونية يخرج من الجسم بعد الموت روح نورانية هى « با » وشبح مادى يماثل الميت فى كل شىء هو « كا » .

وهذا الشبح المادى يعود بعد الموت ليبحث عن صاحبه ، فإذا وجد جثته حافظة لمعالمها وشكلها ، تذكرها وحل فيها فبعثها حية .

ولهذا حرص الفراعنة على تحنيط جثثهم لحفظ معالمها حتى تستدل عليها « الكا » .

و « الكا » تستطيع بالسحر والتعاويذ ، أن تحل فى تمثال الميت

أو رسمه أو صورته ، إذا لم تجد جثته . . لأن الصورة تذكرها بشبهها . .

ولأنها مادية فهى تحتاج إلى غذاء ، ولهذا يضع الفراعنة أوانى الطعام حول موتاهم لتتغذى « الكا » . . ويقدم الكهنة القرابين الطازجة كل يوم ، ويقرءون الصلوات لتستطيع « الكا » أن تستمد منها غذاءها .

وإذا لم تجد « الكا » غذاءً ، فإنها تستطيع أن تتغذى بالسحر ، من رسوم الطعام على الجدران . .

ولهذا جمعت مقابر الفراعنة بين فنون التحنيط والنحت والرسم لأنها الوسائل التى تتعرف بها « الكا » على شكلها وصورتها ، وتعود إلى حياتها الأولى . .

ولم يهتم الفراعنة بالـ « با » النورانية ، إلا من تبع منهم عبادة الشمس « رع » فحرص على الانتقال بعد الموت إلى السماء ، وهؤلاء بنوا الأهرامات العالية والمراكب الشمسية لمصاحبة رع فى رحلته الأزلية عبر السماء . . هؤلاء كان الاندماج فى النور الإلهى عن طريق « البا » هدفهم . .

كنت أسترجع فى ذهنى هذه الأساطير الفرعونية ، وأتذكر فى نفس الوقت كلمات صديقى الهندى ، أمرى خان ، عن الروح المادية اللطيفة ، التى تنتقل بعد الموت إلى عالم من الذبذبات ، أرق

من عالمنا ، ولكن يشبهه فى كل شيء ، فيه فيلات وقصور ومستشفيات ومدارس . . وفيه فاكهة وزهور وحيوانات . . وفيه موسيقى وفن وأدب ، وفيه عمل وحب وخير وشر .

ما الفرق بين هذا العالم ، عالم الآخرة ، الذى تصوره الهنود ، و« الكا » الروح المادية . . التى اعتقد فيها الفرعونى . .

وهى مثل روح صاحبنا ، تستطيع عند اللزوم أن تتغذى على الصور والرسوم . .

كان كلام أمرى خان يبدو لى مشابهاً للأساطير الفرعونية ، كما هو مشابه لفكرة المثل الأفلاطونية .

ولو أنى صدقته ، لوجب على أن أصدق الفراعنة . ولوجب على أن أغرق فى عالم الأساطير والخرافات إلى أذنى . .

وكنت مازلت أذكر العالم المسحور الذى عشت فيه مع « البراهما » فتعاودنى الرجفة ، وتتخلل رائحة التابوت ، والمكاحل والعطور البائدة ، حواسى . . فتضاعف من تلك الرجفة .

وترتفع كلمات معاون الآثار مخيفة بربرية .

– تصور هذه الحبات من القمح . . عمرها أربعة آلاف عام . . وهى مازالت على حالها . . ربما ضمرت قليلا . . لكنها مازالت محتفظة بشكلها ، هل تظن أن هذه الحبات مازالت حية . .

هل تظن أنها يمكن أن تنمو إذا زرعت .

هل يمكن أن يكون كلامه صحيحاً ؟ !

هل يمكن أن تنمو هذه الحبوب بعد أربعة آلاف سنة من الموت فى جب تحت الأرض . . وأمسكت بالحبوب أتفحصها بعينى المجردة . . ثم بعدسة .

كانت تبدو ضامرة عجفاء ، لكن محتفظة بشكلها .

ووضعت بعضاً منها فى جيبى . . على سبيل البركة . .

هذه حبوب أكل منها الفراعنة رغيفاً منذ أربعة آلاف سنة . .

وغاب المعاون فى الحجرة الثانية الملاصقة لحجرة الدفن ، ثم عاد يحمل لفافة من البردى ، بسطها أمامى فى فضول . . كانت ممزقة فى أماكن . . ولكن الكتابة الهيروغليفية واضحة عليها . .

وقال المعاون إنها ليست البردية الوحيدة التى عثر عليها . . فهناك برديات أخرى . .

وقد عثرت بالفعل فى الغرفة الثانية على عدة برديات مكتوبة باللغة الهيراطيقية ، وهى اللغةالهيروغليفية المختزلة . .

كانت ثروة ، معناها بالنسبة لى : سهر عدة ليال فى فض الطلاسم والرموز .

ولففتها فى حرص وأودعتها حقيبتى . .

وكان المعاون يشير إلى حلقات نحاسية فى جدران الغرفة ، وإلى

حبل من الكتان يتدلى من إحدى هذه الحلقات . . ويسأل . . ماذا يمكن أن تكون . .

وكنت أكثر منه حيرة ، فلم يسبق لى أن رأيت مثل هذه الحلقات فى مقبرة . . وأشرت إلى حقيبتى قائلاً :

- ربما وجدت الجواب هنا . .

أقصد فى البرديات . .

وكانت الغرفة الثانية تؤدى إلى سرداب وضعت به أسلحة من كل نوع . . تروس ورماح وخناجر وعصى . . ونهاية السرداب صماء مغلقة لا تؤدى إلى شىء . .

وكنت أسأل نفسى طول الوقت . .

من يكون الرجل العظيم صاحب المقبرة .

وهل هو : رجل ، أم امرأة . .

إن الأمشاط والمكاحل ، وسكين قص الأظافر ، وأوانى العطور ، تشير إلى امرأة .

والأسلحة والتروس والرماح ، تشير إلى رجل .

هل كانت المقبرة لرجل وزوجته ، وهذا ما تبقى من متاعهما بعد أن سرقت . .

كانت أوراق البردى فى حقيبتى تعدنى بالكثير . .

وأخذت مذكرات مختصرة بكل ما وجدته فى المقبرة .

وعدت إلى منزلى أحتضن أوراقى ، وكأنى أحتضن عشيقة . .
وفى طريق العودة هطلت الأمطار بشدة . . وبلغت منزلى وثيابى تعصر عصراً ، كأنها أسفنجة مكتظة . . وتقطر بالماء . . وفى تلك الليلة لم أنم .

بسطت أول بردية . . فى شوق . .
وكانت بردية عجيبة . .
كانت كلها أرقاماً . .

وأنا أعرف أن الفراعنة عرفوا الحساب والهندسة ، وبرعوا فى علوم الرياضة . . ولكنى لم أكن أتوقع أنهم بلغوا هذا القدر من الدقة والتفوق .

كانت أمامى أرقام عشرية ومعادلات وعمليات جمع وطرح وضرب الكسور . . ونظرية شبيهة بنظرية مربع الوتر للمثلث ، وكيف أنه يساوى فى المثلث القائم الزاوية بمجموع المربعين القائمين على الضلعين الآخرين . . ونظرية المتواليات الهندسية وأكثر بديهيات الهندسة الأقليدية .

والأرقام من الواحد (وع) إلى المائة (شاع) إلى الألف (خا) إلى المليون (حح) ومضاعفاتها وكسورها .

روخمت أى ثلث . . (رو معناها جزء وخمت ثلاثة . . أى

جزء من ثلاثة) ويكتبونها هكذا :

والربع ويكتبونه هكذا :

والجذر التربيعى ويكتبونه هكذا .

وتوقفت عند معادلة لم أفهمها . .

وضاعف من صعوبات القراءة أن البردية مكتوبة بلغة هيراطيقية ، أى هيروغليفية مختزلة ، وكانت بعض الاختزالات غير مفهومة وغير واضحة .

كان الكاتب أحد علماء الرياضة ، وكان يعرض طريقة حسابية دقيقة ، لقياس درجات الزوال الشمسى .

إنها إذن مذكرة فلكية . .

وأنا أعرف أن الفراعنة درسوا الفلك ، وعرفوا توقيت الفصول والشهور . . ومازالت الشهور القبطية ، تحفظ لنا التسمية الهيروغليفية القديمة للشهور . .

فشهر توت هو تهوت باليهروغليفية . .

وكيهك هو كاها كا بالهيروغليفية . .

وطوبة هو طوبيا بالهيروغليفية . .

وبرمودة هو براحاموت بالهيروغليفية . .

وبشنس هو باخنسو بالهيروغليفية . .

وبؤونة هو باأونى بالهيروغليفية . .

وأبيب هو أبيب بالهيروغليفية . .

واللغة القبطية تحفظ لنا النطق الهيروغليفى ، وإن كانت مكتوبة بحروف يونانية . . فكلمة « مس » بالقبطية معناها « يلدابنًا » .

وقد اكتشف شمبليون منها معنى رعمسيس (رع يلد ابنا) وفض رموز اللغة الهيروغليفية بمساعدة حجر رشيد . .

اللغة الهيروغليفية لم تمت بعد أربعة آلاف سنة . . بل مازال ينطقها الرهبان الأقباط فى أديرتهم بحروف يونانية . .

إن ما أقرأه أمامى ، هو علم حى ، وليس علمًا ميتاً بائداً . .

ومن يدرى أية نظريات جديدة أو قديمة تختفى وراء هذه المعادلات التى لا أعرف لها قراءة . .

وكان الوقت يمضى وأنا أجمع حولى القواميس . . كل ما وضع للغة الهيروغليفية من قواميس . . وكل ما قيل فى فقه خطوطها . . الخط الهيراطيقى والديموطيقى والكرسيفى . . وأقابلها بالمفردات القبطية . . وأحاول أن أخرج بمعنى دون جدوى . .

كان عقلى قد تحول إلى جدار أصم مصمت لا ينفذ منه نور من فرط التعب . .

وفكرت أن أدع بردية الفلك جانباً . . وأتناول بردية أخرى على

سبيل التغيير ، ربما استطعت أن أنشط ذهنى .

وتناولت البردية الثانية . .

وبسطتها أمامى . . .

كانت عن فن التحنيط عند الفراعنة . .

لغزالألغاز الذى حير الباحثين والمؤرخين .

وتيقظت كل حواسى ، كأنى وضعت رأسى تحت صنبور ماء بارد . .

٦

كانت البردية تتناول بالتفصيل بنداً واحداً من بنود التحنيط ، هو البند الأخير ، وهو لف المومياء المحنطة بشرائح الكتان المغموسة بالصمغ ، طبقة بعد طبقة ، حتّى تبلغ ١٦ طبقة من الضمادات . . وكان بها وصف شامل لصلوات الكاهن المختص بالتضميد وهو يقرأ الشعائر والتعاويذ السحرية عند تضميد كل عضو ، ليساعده على العودة حيًّا . . فإذا بدأ بتضميد الرأس ، مسحها بالزيت ، وهو يقرأ . . « الآن ثبت رأسك فوق رقبتك ، وشد أنوبيس عظامك ، ووهب جسمك القوى ، فلن يصيبه البلى » . . فإذا شرع يضمد الساقين قال : « والآن أزلت عنك عجزك عن الحركة . . إنك تقف بنفسك على قدميك ، وتمشي كما شئت تماماً ، مثلما كنت تفعل وأنت على قيد الحياة » . .

وتنتهي البردية بترتيل الكاهن للمتوفى .

إنك تعيش ثانية . . فلقد رددت إليك الحياة إلى الأبد . .

وعاد شبابك كأجمل ما كان . .

ولم أجد بالبردية وصفاً لمراحل التحنيط وعملياتها ، كما كنت أتوقع .

وظننت أن البردية هي واحدة من عدة برديات تتناول فن التحنيط ولكني وجدت أنها البردية الوحيدة .

وكانت البردية التالية عن الطب والجراحة .

وكانت فيها معلومات عجيبة عن تقدم الطب في ذلك العصر .

في مذكرة عن الجروح ، روت البردية كيف كانت الجروح النظيفة تعالج بالخياطة والأربطة اللاصقة وباللحم الطري أول يوم ، ثم بالأعشاب القابضة والعسل لإيقاف النزيف .

وفي مذكرة عن الحمى ، وجدت هذه النصيحة :

إذا أصيب الجسم بالحمى وحدثت به تقلصات . . وإذا وجدت وجه المريض قد غطاه العرق والزبد ، ونفرت عروق رقبته وتصلبت أسنانه ، وازرق وجهه ، وانقبض فمه ، والتوى حاجباه ، وبدا وكأنه يبكي . . فقل . . هذا مرض لا أقدر له على شيء . .

وفي مذكرة عن الكسور . .

إذا تفحصت رجلا مصاباً بكسر في الترقوة ، ووجدت بها قصراً . . فقل . . هذا مرض سأعالجه ، واطرح الرجل على ظهره وضع بين لوحيه شيئاً ملفوفاً ، حتى يبتعد جزءا ترقوته ، ويرجع

الكسر إلى موضعه . . وبعد ذلك ثبت وسادة من الكتان على الجانب الداخلى من ذراعه . وهو نفس العلاج الذى يعالج به الجراحون كسر الترقوة إلى الآن .

والظاهر أنهم لم يجدوا علاجاً للزكام . . وكان حالهم فيه كحالنا . . فقد قرأت هذه التعزيمة لطرد الزكام مكتوبة فى البردية :

انصرف يا ابن الزكام ، الذى يكسر العظام ، ويهشم الجمجمة ، وينخر المخ ، ويصب المرض فى فتحات الرأس السبع . . لقد أحضرت لك جرعة خاصة ضدك . .

أما الجرعة فمواد مركبة من لبن امرأة وضعت مولوداً ذكراً ، ومن عصير نبات ، لم أعرف نوعه . .

والأغلب أنها جرعة ملطفة لالتهابات الزور .

وفى أمراض العيون قرأت هذه الوصفات :

لعلاج التهاب الجفون ، نقط من الصبر ، وسلفات النحاس ، (التوتيا الزرقاء) تقطر فى العين بواسطة ريش نسر .

وفى مرض الشعرة . .

نصحوا بانتزاعها ، ووضع مرهم من دم الخفاش . .

وللرمد الحبيبى . .

الكحل ، وسلفات النحاس ، وكبريتات الأنتيمون . .

وصادفت فى البردية أكثر من ثلاثين صنفاً من الأعشاب

والنباتات ، والمواد المعدنية ، التى توصف للأمراض ... وبعضها لم أسمع عليه مثل البابونج (لطرد الديدان) ، والقرطم (لعلاج الرمد) ، والكولشيك والخردل واللفاح والمر والعفص وجوزة الطيب وحبة البركة والأفيون والسكران والحشيش وبصل العنصر وشعر الجن والمانيزيا والزنجار وأملاح الحديد والنحاس والرصاص والأنتيمون . .

وقرأت عن ألوان من التخصص عجيبة . . مثل التخصص فى تحضير الحقن الشرجية . . ويسمون القائم بها . . راعى الشرج . . هذا عدا التخصصات العادية فى أمراض النساء . . وأمراض العيون والكسور . . والجروح . . والحروق . . والأورام . . والأسنان .

وفى البردية وصف دقيق للذبحة الصدرية :

إذا فحصت مريضاً يشكو من آلام فى صدره وذراعه وناحية من معدته . . فقل . . هذا مرض خطير . . والموت يهدده . .

وكانت هناك ملاحظات دقيقة عن تشخيص الأورام باختبارها والدق عليها بالإصبع . .

كنت أمام طبيب كبير وعالم بالفلك والهندسة والحساب والتحنيط .

من يكون . ؟

هل هو أمحوتب . . الطبيب المهندس العالم ، أيام الملك

زوسر ، أول ملوك الأسرة الثالثة ، صاحب هرم سقارة المدرج . . الذى قرأنا أنه هو الذى أشرف على بناء الهرم المدرج ووضع تصميمه ؟

ولكنى لم أجد له تمثالا واحداً ، ولا رسماً ، ولا اسماً محفوراً فى المقبرة . .

ولم يرد ذكره مرة واحدة فى البرديات . .

أيكون السبب أن المقبرة ليست مقبرته ، وأنه منقول إليها بعد نهب مقبرته الأصلية . .

عدت إلى الكتب التى كتبت عن أمحوتب .

وظللت أقرأ حتى الصباح حينما ثقلت أجفانى من التعب وكنت مازلت أفكر فى أمحوتب ، وفى التحنيط ، وفى علاقة أمحوتب بالتحنيط وبالطب وبالفلك ، وانطبقت أجفانى ، وذهنى مايزال مشغولا . .

* * *

وفى ما يشبه الحلم ...

أقول ما يشبه الحلم لأنى أعتقد أنى لم أكن نائماً . . وإنما كنت فى حالة استرخاء شديد ، وشبه غيبوبة من التعب . .

رأيت ما يشبه أمحوتب فى ثيابه الفرعونية .

وحينما اقترب منى ، خيل إلى أن وجهه يلتبس على بوجه آخر أعرفه ، وكان المئزر الفرعونى الذى يضعه حول خصره ، يشبهه إزاراً آخر ، كان يضعه رجل آخر نصف عريان مثل هذا الرجل . . ودققت فى وجهه . .

نعم إنه « البراهما واجيسوارا » ، بعينه ، فى ثياب فرعونية ومشية فرعونية . . وعلى وجهه ذلك الجلال الذى كان على وجه أمحوتب القديم . .

وابتسم « البراهما » . . أو لعله أمحوتب . . لا أدرى . .

وسمعته يقول :

– أنا أعرف ما يشغلك . . أنت تريد أن تقرأ بقية البرديات التى كتبتها عن التحنيط . . أنت تريد أن تعرف سر هذا الفن القديم .

قلت وأنا أرتجف .

– نعم . .

– ولكنه لم يعد سرًّا . . ولم يعد فنًّا . . وليس جديراً بكل هذه الهالة التى خلقتموها حوله . . وحينما كنا نقوم به فى الماضى كنا نتركه للمنبوذين من أحط الفئات الشعبية لتمارسه . .

– إن كل ما أتمناه هو أن أعرف ماذا كانت تلك الفئات المنبوذة ، التى تقوم بالتحنيط تفعل . . ؟

كان التحنيط بكافة عملياته يحتاج إلى سبعين يوماً ، يردد فى

أثنائها الكهنة الصلوات ، ويشرفون على المراسيم والطقوس ، وقد ارتدوا أقنعة ، على هيئة رأس ابن آوى ، تمثل الإله أنوبيس ، وهو إله الموتى عندنا . .

وكان المحنط يبدأ عمله بتفريغ الجمجمة ، وكان هذا يحتاج إلى معرفة دقيقة بتشريح الجمجمة ، لأنه كان يقوم بهذه العملية بإدخال خطاف معدنى ، عن طريق الأنف ، يخترق قاع الجمجمة ، وينفذ إلى تجويفها . . ثم يدير هذا الخطاف داخل الرأس ، حتى يهرس المخ ، ويحوله إلى هريسة ، يفرغها مرة أخرى من الطريق نفسه .

وبعد ذلك ، كانوا يفرغون البطن من خلال فتحة من الجانب الأيسر . .

ويستخدم المحنطون فى ذلك سكيناً من الحجر الصوان ، وكانوا يفرغون البطن والصدر من أحشائهما ومحتوياتهما ، ماعدا القلب يتركونه فى مكانه موصولا بشرايينه ، والكلية كانوا يتركونها فى مكانها لاصقة بالظهر . . وإذا حدث وانتزع القلب أو إحدى الكليتين بطريق الخطأ كان يتعين إعادتها إلى مكانها . . وقد كان هذا ضرورياً لاستمرار الحياة . .

وكان تجويف البطن والصدر يحشى بعد ذلك بالكتان المشبع بالمواد العطرية والصمغ والنطرون .

أما الأمعاء فكانت تملأ فى العادة بالمر واليانسون والبصل بعد غسلها بنبيذ البلح والمواد العطرية ، ثم تلف بالضمادات وتحفظ فى أوعية خاصة . .

وكانت فتحة البطن تخاط بعد ذلك ، أو تسد بالشمع المذاب ، كما كانت تسد فتحات الأنف والفم والأذنين والعينين بالمادة نفسها . .

ويأتى بعد ذلك دور التجفيف ، وهو أهم الخطوات لحفظ الجسم وصيانته ، وكنا نستخدم فى ذلك ملح النطرون ، وهو ملح طبيعى ، من خصائصه أنه يمتص الدهن والرطوبة . .

وكان ملح النطرون ، بالإضافة إلى هذا ، ملح مقدس عندنا ، وكان يمزج بالبخور ، ويغسل به الفم ، فى أثناء الطقوس الدينية . .

ولما كان الجلد يتسلخ ، والأظافر تتساقط غالباً فى أثناء التجفيف بالنطرون ، فقد كان لزاماً على المحنط أن يحيط طرف كل إصبع بكستبان من الذهب ، أو المعدن ، ليضمن بقاء الظفر فى موضعه . .

وكان يغمس الجثة عمودية حتى العنق ، فى أوان كبيرة مليئة بالنطرون ، بحيث يبرز الرأس فوق الحافة ، وبذلك لا يتسلخ ولا يتشوه بالملح .

وبعد الانتهاء من التجفيف ، كان الجسم يرفع من النطرون . ويغسل بمحلول من الملح نفسه ، مضافًا إليه الزيوت العطرية . أما الأصابع فكانت تصبغ بالحناء ، والفجوات الناتجة عن تحلل العضلات فى أطراف الجسم ، كانت تحشى بنسالة الكتان ، أو نشارة الخشب والرمل ، حتى تعود إلى سابق مظهرها الطبيعى . . وبعد ذلك تدهن المومياء بالصمغ السائل .

وكانت العمليات الأخيرة تجرى والجسم ممدود على مناضد خاصة ، تشبه مناضد التشريح ، مجهزة ببالوعات أسفلها ، لصرف السوائل الزائدة . . وكل منضدة عليها كتلتان مستعرضتان من الخشب ، يوضع فوقهما الجسم مرتفعًا عن السطح ، حتى يتمكن الكهنة المختصون بالتضميد ، ولف الأربطة ، من تأدية عملهم بحرية حول الجسم . . وكانت هذه الأربطة تغمس فى الصمغ وتلف فى طبقات متعددة حول المومياء . . والكهنة يقرءون الصلوات والتعاويذ التى تطمئن كل عضو على رد الحياة إليه . .

وبعد اكتمال العملية كانوا يجمعون كل ما تبقى من المواد والأربطة الكتانية المتسخة ، والأوعية الفارغة ، ويودعونها فى ركن من القبر أو حفرة قريبة . .

بهذا كانت تنتهى عملية التحنيط ، التى خلقتم حولها كل هذه الهالة من السرية . .

أتراها كانت فناً جديراً بكل هذه المبالغة ؟ ! !

وأين يكون إذن فن التحنيط ، من فن النحت ، والموسيقى ، والمعمار ، وعلوم الهندسة ، والطب ، والفلك ، والرياضيات . .

يبدو أن خيالكم ذهب بكم بعيداً . .

وسكت . . ونظر إلىّ مبتسماً . .

وهتفت فى حشرجة :

– ولكن من أنت . . إننى أعرفك . . أعرفك . . أنت « البراهما » لقد لقيتك من قبل . . وجلست إليك .

– منذ أربعة آلاف عام . . ربما .

أمحوتب . . « البراهما » . . مستحيل .

أو الاثنان معاً . لم لا . .

مستحيل . .

وتزاحمت الكلمات فى فمى . . وكنت أريد أن أسأله عن الطب على أيامه ، وعن الفلك وعن السحر ، وعن الحياة الأخرى ، ولكنى كنت أتكلم ، فلا تخرج من فمى ألفاظ . . إنما يخرج هواء . .

وكان قد بدأ يعطينى ظهره وينصرف . .

حاولت أن أصرخ لأوقفه ، ولكن صراخى كان يخرج من فمى هواء لا صوت له .

كان هو « البراهما » ذاته فى مشيته وجلاله . . ولكن كيف . .
كيف . . ؟

شعرت أنى أختنق برغبة حادة لا أستطيع أن أحققها . .

وتيقظت وأنا أعانى ألماً عظيماً فى حلقى وصدرى ، وكأنى كنت أجرى وألهث لعدة ساعات . .

وكنت مازلت منكفئاً على مائدتى وأمامى البردية الأخيرة . .

وما أن تمالكت حواسى حتى أسرعت أدون فى عجلة ما سمعته عن عمليات التحنيط فى حلمى . .

وبحثت عن مرجع لهيرودوت . . لأقرأ ما قاله عن التحنيط . . وأراجع عليه ما سمعته فى منامى . .

وكانت مفاجأة حينما اكتشفت أن أغلب ما سمعته مكتوباً بنصه ، فى رواية هيرودوت عن التحنيط . . وهى الرواية التى جرى العرف على تكذيبها . .

ومن هنا كان كلام أمحوتب . . إن فن التحنيط لم يعد فيه سر . . وأن ما خلقناه حوله ليس إلا هالة من المبالغات . .

وكنت أفكر فى أمحوتب الذى رأيته فى المنام . .

هل هو أمحوتب حقًّا ؟ ولماذا يقول إنه أمحوتب و« البراهما » فى ذات الوقت .

كيف يكون هو نفسه ، وهو الآخر فى نفس الوقت .

كيف أكون أنا نفسى ، وأنا الآخر فى نفس اللحظة .

وكيف يتعاصر الماضى والحاضر . . أم أنى أهذى .

أم أن انشغالى الشديد ، هو الذى صور لى كل هذه الرؤى . .

وقراءاتى فى هيرودوت هى التى أعادت نفسها على لسان هذه الأشباح التى توهمتها . .

إننا لا نرى فى الأحلام إلا نفوسنا وانشغالاتنا وهمومنا . .

ونحن فى العادة نتحدث على لسان كل من نسمعهم . وكل من نراهم فى أحلامنا . .

وكان المطر قد عاد يدق على النافذة ويهطل بشدة . .

وما لبثت أن عدت إلى النوم على صوته الرتيب . .

وكان هذه المرة نوماً عميقاً كأنه الموت . .

٧

كان نوماً كأنه الموت . .

وكأنما انسدلت عدة أستار سوداء بعضها فوق بعض أمام الرؤية .

وكأنما ثقلت الرأس ، فإذا هى جبل من حديد .

وكأنما ذابت الأطراف فأصبحت عدماً . .

ولكن ثمة حياة ظلت هناك تحت هذا العدم . . ثمة وجود .

فأنا موجود وسط هذه البحار الممتدة من الظلمة والسكون .

أنا موجود تحت الردم .

أنا هنا . .

فى أبيدوس . .

أنا فى أبيدوس . نعم .

وأنا أتبين المكان حولى جيداً .

إنه محفل هائل . . وهناك زينات أمام المعبد . . والملك والملكة

جاءا محمولين على محفتين ملكيتين . . وهناك خلق كثيرون قد خروا راكعين حينما ظهر الملك .

الملكة تبتسم . . أنا أعرفها . . إنها نفرتارى ، والملك هو أحمس .

والكهنة يروحون ويجيئون بملابس أرجوانية ذات أكمام واسعة .

وهذا هو « نون محب » حكيم القصر .

ونون محب يميل على هامساً وهو يشير إلى أحد الكهنة .

– هذا هو الكاهن الذى سيمثل دور أوزيريس . . وهذه هى الساحرة التى ستمثل دور إيزيس . . وهذا هو ابنها حور . . إنك لن تستمتع بالمسرحية إلا إذا عرفت قصة الآلهة عندنا . .

وأخذنى نون محب ، وراح يتمشى بى تحت كرمة ذات تعاريش كثيفة . . وكانت استعدادات التمثيل تجرى على قدم وساق وراء المنصة الكبيرة على شاطئ النيل ونحن نتحدث .

قال نون محب .

– تقول أدياننا إن الكون بدأ على صورة فضاء أزلى بلا حركة ، ولا حياة ، ثم قام فيه رع إله الشمس ، الذى خلق نفسه بنفسه . . ومن فم رع ، ومن أنفاسه ، ولد شو ، وتفنوت ، اللذين تزاوجا لينجبا نوت ربة السماء ، وجب ، إله الأرض ، وتزاوج جب

ونوت ، وأنجبا الأخوة الأربعة : إيزيس ، وأوزيريس ، وست ، ونفتيس . وهكذا تألف التاسوع الإلهى الذى يحكم الكون .

ثم بدأ الصراع بين الآلهة ، فقتل ست ، أخاه أوزيريس ومزقه إربا وألقى بأشلائه فى الجهات الأربع ، واستولى على ملكه .

وأشار إلى المسرح :

– ها هو العرض قد بدأ . . وها هو « ست » ملفعاً بعباءته السوداء ، وعلى وجهه قناع مفزع ، يتسلل إلى المسرح ، ويغتال أوزيريس .

– هل هو يمزقه بالفعل .

– لا . . إنما هى براعة التمثيل ، هى التى جعلتك تظن أنه مزقه ، وما هذه الأشلاء التى تطايرت فى الفضاء إلا أشلاء دمية .

وها هى إيزيس تظهر على المسرح ثائرة باكية ، تجمع أشلاء أخيها وزوجها القتيل أوزيريس . . وها هى تقرأ الصلوات والتعاويذ ، وتضم الأشلاء ، بعضها إلى بعض ، ثم تحييها بالسحر ، فتعود إلى أصلها . .

والأناشيد التى تسمعها ، هى أناشيد الفرح ببعث أوزيريس ، يرتلها الكهنة .

وإيزيس وأوزيريس الآن ، فى خيمة الحب ، يتبادلان القبل ، وحوريات المعبد يرقصن ويرتلن :

أوزير ياواهب الخصب والنماء .
ياباعث الحياة فى أجنة البذور
ياواهب الثمار للأشجار .
وناثر الأزهار .
على ربى الصحارى والسفوح والجبالِ
وها هى إيزيس قد حملت من قبلة أوزيريس
وأوزيريس إله الإخصاب قد أودعها بذرته
وها هى إيزيس تلد ابنها الإلهى حور ، بين أغانى المنشدات :
يا حور . . ياعيوننا التى لا تنام
يا ساهراً على العدالة .

وحور إله الحق والعدالة ، يتطلع إلى اليوم الذى يثأر فيه لأبيه من قاتله ، ويسترد ملكه ، ويهزم إله الشر ، ست ، وأنت ترى المتفرجون من عامة الشعب ، قد بدءوا الآن يختلطون بالكورس ويشتركون فى التمثيل ، وقد انضم الأخيار منهم إلى حور والأشرار إلى ست ، فى المعركة الأزلية بين الخير والشر .

وها هى الأبواق تدوى فى نذير الشؤم والحرب . . والمعركة تدور حامية بين حور ، وست . . والسيوف تلتحم . . والرقاب تطير ، والضحايا تسقط . . والدماء تسيل .

وإيزيس تطلق البخور ، لينتصر ابنها على عدوه .

وبقية التاسوع الإلهى ، يرقب المعركة الدائرة فى حياد .

وهى معركة استمرت ثمانين عاماً ولم ينتصر فيها أحد . . فاقترح ست أن يتقمص كل منهما صورة فرس البحر ، ويلقى بنفسه فى أعماق النيل . . ومن يستطيع منهما البقاء تحت الماء مدة أطول من الآخر ينتصر.

وها هو ست ، يلقى بنفسه فى الماء ، ومن خلفه حور . . ويبتلعهما النيل .

وها هو ست يقذف على الشاطئ بعين حور . . لقد قلع ست عين حور . . وقطع حور خصية ست . . وها هو يلقى بها هى الأخرى على الشاطئ . .

وها هما خارجان من الماء فى وقت واحد جريحين ، لم ينتصر أحد منهما ، بعد كل تلك المذابح .

والإله رع ، يعيد إلى حور عينه ، وإلى ست خصيته ، ويقترح إجراء محاكمة عادلة ، يشترك فيها التاسوع الإلهى .

وست ، يشترط أن تجرى المحاكمة فى جزيرة منعزلة ، وألا تحضرها الساحرة إيزيس .

وها هو « عنتى » يجدف بالقارب المقدس إلى الجزيرة ، ومعه ست ، وحور ، وبقية الآلهة ، وإيزيس متنكرة فى هيئة عجوز ، حتى لا يعرفها « عنتى » .

وها هى إيزيس فى الجزيرة ، تسحر نفسها على هيئة عذراء فاتنة ، يقع فى حبها ست ، ويغازلها ، فتحكى له مصيبتها ، وكيف أن ابنها سطا عليه لص وسرق ماشيته من الحظيرة . . وست يجيبها مستنكرًا . . وكيف سطا اللص على الماشية ؟ وأين كان رب العائلة ؟ . . إنه لمجرم أثيم . . . .

وإيزيس تصرخ صراخاً حاداً عند سماع كلماته ، وتتحول إلى طائر ، وتحط على فرع شجرة ، وهى تناديه ساخرة :

إبك على نفسك . . إن فمك هو الذى قالها ، ومهارتك هى التى حكمت عليك ، أيها اللص الذى سرقت ابنى ونهبت ملكه . . أيها المجرم الأثيم .

وها هو ست ، يلطم خديه ويذهب باكياً إلى رع .

وتنطلق الأبواق ، وينشد المنشدون معلنين انتهاء الفصل الأول من المسرحية .

ونحن الآن فى فترة استراحة . . ويمكن أن نتناول شيئا من الطعام .

وكان المسرح يتحول فى تلك الأثناء إلى سماط ممدود ، عليه مئات من أوانى الجعة والنبيذ ، وأعداد من سلال التين والعنب ، وألوان من الفطائر والحلوى والدجاج المحمر . . وكل الموجودين يشتركون فى الطعام .

وقال لى نون محب ، إن هذه المسرحية تستمر لعدة أيام . . وإن فصولها العديدة تمثل يوماً بعد يوم ، طوال فترة الأعياد ، وهى كالعادة لا تنتهى إلى نهاية ، شأنها شأن صراع الخير والشر ، الذى يستمر بلا نهاية طول الأزل .

وغاب لحظة ، وعاد معه فطيرة ناولها إلىّ .

– فطيرة مقدسة من فطائر العيد . . هذه الفطائر باركها الكاهن الأكبر ، بتعاويذه وصلواته ، وهى تزيد من قوة من يأكلها ، وتطيل فى عمره .

قلت فجأة :

– هل تصدق هذا الكلام الفارغ ؟

نظر إلىّ فى دهشة وقد انعقد لسانه . . فى حين أردفت :

– هذه البركات التى يوزعها كاهنك الأكبر ، ومن ورائه تاسوعه الإلهى . . وهذا الكلام الفارغ عن إيزيس وأوزيريس .

وظل ساكتاً مدة ، ولم يرد ، وقد ظهرت عليه علامات التفكير قلت :

– هل تصدق هذه الأكاذيب الساذجة ؟

أجاب الحكيم :

– وهل تكون كاذباً ، حينما تقول لحبيبتك التى تحبها . . حبيبتى . . ياحبة القلب . . ياواهبة الحياة والسعادة . . يابلبلا مغرداً

على فنن .. هل تكون حبيبتك بلبلا حقاً . إن الأديان أشعار ، بعضها شعر جيد ، وبعضها شعر ردىء .. ولكنها دائماً تدل على شيء فى القلب .. شيء صادق .

وخيل إلىّ أنى سمعت هذه النبرات من قبل .

ونظرت إلى ملامح الرجل الذى يكلمنى . . وكدت أقسم أنى أعرفه . . وأنى قابلته . . وأنى جلست إليه ، واستمعت إلى حكمته . .

نعم . . إنه « البراهما » .

« براهما واجيسوارا » مرة أخرى .

قال « البراهما » ، أو نون محب ، لا أدرى .

– وما إيزيس ، وأوزيريس ، وحور ، وست ، إلا أسماء نتعرف بها على الموجودات . . والشر والخير موجودان . . أليس كذلك . .

وهل يدل اسمى على شيء . .

أبداً . .

إنها مجرد ألفاظ . . مثيرة للضحك ، مثل إيزيس وأوزيريس .

لماذا لا تضحك على اسمك ؟

وناولنى الفطيرة قائلاً :

– كل هذه الفطيرة . . صدقنى لن يشبع الكلام جوعك . .

ولو ظللنا نتكلم حتى الصباح فسوف تظل محتاجاً إلى الفطيرة .

قلت وأنا أقضم الفطيرة :

على أى حال ، كان هنا كثيرون من مواطنيك يشاركوننى الشك فى دياناتكم ، بدليل مقابركم التى سرقت ، وحرقت ما بها من موميات ، وحطمت ما بها من تماثيل . . وكان اللصوص فى جميع الأحوال هم الفراعنة أنفسهم ، وتابوت خوفو الفارغ ، وتماثيله المحطمة فى هرمه العظيم ، تشهد على ذلك .

قال فى هدوء :

– إن التابوت الفارغ فى هرم خوفو ، ليس هو تابوت خوفو ، والممرات التى اكتشفها اللصوص ، كانت كلها ممرات وهمية .

مومياء خوفو وتابوته وتحفه ، مازالت سليمة فى مكانها بالهرم ، لم تصل إليها يد . . والتابوت الفارغ ، وضع للتضليل .

وكان هذا الكلام قنبلة بالنسبة لى كمهندس آثار .

هتفت فى فضول :

– وأين إذن توجد غرفة الدفن الحقيقية ، إذا كان التابوت الذى عثر عليه تابوتاً وهمياً .

– أسفل بئر سرية لم تكتشف بعد .

– وكيف يمكن الوصول إلى تلك البئر ؟

ونظر إلىَّ نون محب فى استغراب .

ولم يستطع أن يخفى دهشته لفضولى الزائد ، فقال ضاحكاً :

- هل تريد أن تشترك مع اللصوص فى حملة أخرى .

- أنا . . لا . . لا . . إنما هو مجرد فضول للحقيقة .

- إن المكان لا يعرفه إلا الكاهن الأكبر فى معبد الشمس .

وأردف بعد فترة صمت :

وهناك أقوال أخرى بأن المكان مكتوب فى بردية ، فى مقبرة المهندس « حم أيون » الذى بنى الهرم . . وقد سمعت كاهناً من المرتلين فى معبد الشمس يقول : إن الباب الحقيقى يوجد على نقطة ما فى الضلع الشرقى للهرم . . والحقيقة كما قلت لا يعرفها أحد .

- وهل يقول كهنتكم أيضاً إن « أبو الهول » تحته غرفة سرية ؟

- لا . . إن « أبوالهول » ليس مقبرة . إنه تمثال الإله آتوم . . وهو نفسه إله الشمس رع ، فى رحلته فى عالم الظلمات كل مساء ، وقد تحول إلى أسد ليهزم أعداءه من الجن والمردة من سكان عالم الظلمات . . والتمثال منحوت فى كتلة مصمتة من الصخر ، وأمامه معبد عظيم . . وكان الكنعانيون يعبدونه ، على أنه إلههم « حورون » أو « حول » ومن هنا جاء لكم اسمه « بو حول » أو « أبو الهول » .

- أنت أستاذ عظيم فى التاريخ .

- أشكرك .

- ولكنى لا أصدق كيف تكون نون محب ، وأنت تعرف أشياء

لم ترها فى عصرك . . وكأنك عشت فى كل العصور .

— حقًّا . . إنه لشىء رائع أن يعيش الواحد منا فى كل العصور .

— لا أفهم كيف يمكن أن تعيش فى الماضى وفى الحاضر فى نفس الوقت ، وكأنما كل اللحظات قد تعاصرت بين يديك ، وكأنما الزمن عندك هو الأبد .

— ومن يدرى ، ربما كان الزمن هو الأبد بالفعل ، وربما كان الأمر فى الحقيقة يتوقف على الطريقة التى نعيش بها .

— الطريقة التى نعيش بها ؟ !

وأطرقت ساهماً لحظة ، ثم قلت وأنا أفكر :

— إنى أعجب ! كيف يمكن أن تكون أنت نفسك ، وأنت الآخر . . اثنان معاً . . بل ثلاثة ؟ . .

— بل نحن واحد . .

قالها مبتسماً ابتسامة غامضة .

ونظرت إليه . . كان هو « البراهما » نفسه . . الرجل الذى عاش كل الأسماء والأزمان ،واحتوى الأبد كله فى داخله . .

وكان الكورس والممثلون قد بدءوا يتقاطرون على المسرح ويستعدون لأداء أدوارهم ، وكل الكهنة يرتدون أثوابهم الكهنوتية ويضعون الأقنعة المرعبة على وجوههم . . ولكن المنظر كان

يبهت تدريجيًّا . . والأشكال كانت تذوب وتختلط فى سبيكة من النور المبهم تضايق العين . . والموسيقى كانت تتحول إلى ضجة . . وكنت أشعر بالضيق الشديد . . وأتقلب فى مكانى . . وفتحت عينى لأجد أن الشمس فى عينى . . والغرفة نهار .

وبنظرة سريعة إلى ساعة يدى ، اكتشفت أنى قد نمت أكثر من ثلاثين ساعة متصلة . .

وقمت من مكانى كأنى أقوم من قبر . .

وكانت أصداء الحلم الغريب مازالت تطاردنى . .

الهرم الأكبر . . والغرفة السرية التى لم تكتشف . .

كلام لا يمكن أن يصدق . . هذيان .

وكتبت اسم « حم أيون » قبل أن أنساه .

وتناولت فطورى بسرعة . .

واكتشفت أنى نسيت جاكتى فى البلكونة ، وأن المطر أغرقها ، وأنها لم تعد صالحة للاستعمال . . كان المطر قد ظل يطارد هذه الجاكتة منذ كنت فى المقابر من يومين ، حتى ساعات قبل طلوع الشمس حتى أحالها إلى شىء كالبشكير .

وبينما كنت أنقل محتوياتها إلى الجاكتة الأخرى ، لاحظت أن المنديل لم يعد صالحًا هو الآخر . .

وبينما كنت أتفحصه بنظرة قبل أن ألقيه للغسيل ، لاحظت

عدداً من حبات القمح التى جئت بها من مقبرة أمحوتب بين طياته .

وكانت كل حبة قد انفلقت عن نبتة خضراء صغيرة ، وحملقت فى الحبات النباتية فى ذهول .

بعد أربعة آلاف سنة . . ؟

بعد أربعة آلاف سنة . . هل هذا شىء يصدق ؟ ؟ !

بعد أربعة آلاف سنة . . تدب الحياة . . ويقوم الجنين النائم من تابوته ؟ ؟ ! !

٨

كنت أفكر فى « حم إيون » . .

كان هذياناً . ولكن أى شىء لم يعد هذياناً ؟ !

لقد نبتت حبة القمح بعد موات أربعة آلاف عام فى باطن الأرض . . وسبقت حقائق الواقع غرائب الخيال المجنح .

لم يعد هناك مستحيل .

كانت معلوماتى عن (حم أيون) أنه ابن سنفرو ، وأحد إخوة خوفو ، وأحد الذين أشرفوا على بناء الهرم الأكبر فى المرحلة الأولى من بنائه . . فمقبرته مثل مقابر الأسرة الملكية ، لابد موجودة فى الجبانة الملكية حول الهرم . . والوصول إليها ليس أملا بعيداً .

استخرجت إذنًا بالحفر من الجبانة الملكية . . وذهبت على رأس فرقة من العمال إلى منطقة الهرم .

وبدأت بالطواف حول المقابر التى كشف عنها بالفعل ، وكانت كلها مسروقة ولا وجود لشىء فيها سوى الجدران .

ثلاثة أهرامات صغيرة تحولت إلى ركام ، هى مقابر زوجات

خوفو الثلاث ، تليها مقابر الوزراء ، وكبار رجال الدولة والكهنة .

رسمت خطاً على امتدادها ، وأمرت بالحفر .

وبينما كان الحفر يجرى . . كنت أقرأ النقوشَ على كل جدار قائم ، وكل قطعة حجر ، وكل طلل ملقى على الرمال . . أبحث عن إشارة ، أو خبر عن «حم أيون» .

جلبت معى كل المراجع البردية التى ذكرت خوفو وهرمه . . وكل ما كتب من أساطير وقصص ، حول خوفو وأسرته .

كنت أعلم أن الحفر سوف يستمر أياماً . .

وكانت السلوى الوحيدة أن أقطع الوقت فى الحفر على طريقتى . . فى بطون الكتب . . وخوفو شخصية أسطورية فى الأدب المصرى القديم ، مثل عنتر عندنا . .

ولهذا وجدت أكثر من مادة قصصية تدور حوله .

فى بردية يعود تاريخها إلى الأسرة الثانية عشرة ، وجدت هذه القصة الغريبة عن مغاليق الهرم .

كان خوفو يريد دائماً أن يعرف سر مغاليق هيكل تحوت ، ليصنع مغاليق تماثلها فى هرمه .

وسمع خوفو عن الساحر العجوز «ددى» الذى يبلغ من العمر مائة سنة وعشراً ، ويأكل كل يوم خمسمائة رغيف ، ويشرب مائة إناء من الجعة ، ويأكل فخذ ثور ، ويجعل الأسد يسير خلفه وديعاً

كالكلب ، ويعرف سر مغاليق هيكل تحوت .

وطلب خوفو من ابنه أن يسافر بنفسه ليحضر له ذلك الساحر .

وذهب الأمير الصغير إلى قرية سنفرو ، حيث يوجد الساحر . .

وكان الأمير يجلس ممدداً على محفة من الأبنوس ، يحملها العبيد . .

وعندما وصل إلى منزل الساحر ددى ، وجده نائماً على حصير أمام عتبة بيته ، واثنان من الخدم يدلكان له قدميه .

ونهض ددى لاستقبال الأمير وحياه أحسن تحية .

وقال الأمير : إنه موفد من أبيه الملك ، ليدعوه إلى قصره ليتمتع بأحسن المآكل والمشارب .

قال ددى : فى أمان . . فى أمان ياحور ، يابن الملك الذى يحبه أبوه .

وذهب معه إلى شاطئ النهر ، حيث كانت السفن راسية فى انتظاره .

وطلب ددى أن يخصصوا له سفينة لأجل عائلته ، وسفينة أخرى لأجل كتبه ومخطوطاته ، فخصص له الأمير السفينتين .

ولما وصل ددى إلى القصر ، استقبله خوفو فى قاعة القصر الكبرى ، ذات الأعمدة ، وبادره قائلاً : لماذا لم أرك قبل الآن ؟

فأجابه الساحر : يأتى الإنسان عندما يدعى ياصاحب الجلالة .

قال جلالته : هل صحيح ما قيل من أنك تستطيع أن تعيد

رأساً مقطوعاً إلى مكانه ؟

فأجاب ددى : نعم أستطيع ذلك يا مولاى الملك .

فأمر خوفو بإحضار أحد المسجونين المحكوم عليهم بالإعدام . ولكن ددى قال : إنه يفضل أن تكون التجربة على حيوان .

فأحضروا له أوزة وقطعوا رأسها ، ووضعوا جسمها فى غرب القاعة ، ورأسها فى شرقها ، وأخذ ددى يتلو سحره وتعاويذه ، فأخذت الأوزة تتحرك ، وكذلك رأسها حتى تلاقيا ، فركب الرأس فى مكانه فوق الجسد وعادت الأوزة للحياة وأخذت تصيح وأعادوا التجربة مرة ثانية فى بطة ، ثم فى ثور ، فنجح فى إحيائها .

ثم سأله خوفو : إذا كان يعرف سر مغاليق هيكل تحوت ؟

فأجاب ددى : بأنه لا يعرف سرها ولكنه يعرف مكانها .

فلما سأله عنها قال : إنها فى صندوق من حجر الصوان فى إحدى قاعات معبد الشمس ، وأنه لا يستطيع إحضارها . . ولا يقدر على ذلك سوى أكبر أطفال ثلاثة ، تحمل بهم امرأة اسمها ددت .

فلما سأل خوفو : ومن تكون ددت ؟

قال : إنها زوجة كاهن رع فى بلدة تسمى سخبو .

وتمضى القصة بعد ذلك ، فنعرف منها أن الساحر نزل فى ضيافة خوفو . . وأن خوفو خصص له يوميًّا ألف رغيف ، ومائة إناء من

الجعة ، وثوراً كاملا ، ومائة حزمة من الكرات .

ونعرف بعد ذلك ، أن ددت زوجة الكاهن فى بلدة سخبو ، قد حملت ووضعت أطفالها الثلاثة ، وأن الإلهات : إيزيس ، ونفتيس ، وسخنت ، وحقت ، هن اللاتى أولدنها ، وأنهن تركن لها فى مكيال الشعير ثلاثة تيجان ذهبية . . بشارة بأن الأطفال الثلاثة سوف يصبحون ملوكاً .

وتروى القصة بعد هذا ، أن الأم ددت ، بينما كانت فى صومعة الغلال ، سمعت غناءً وموسيقى ورقصاً . . وحينما تلفتت ، وجدت أن هذه الموسيقى صادرة من مكيال الشعير الموضوع فى الركن . . وحينما نظرت فى المكيال وجدت التيجان الذهبية الثلاثة ، وعرفت أنها لأطفالها ، وأنهم سوف يصبحون ملوكاً . . وأخفت الأم الخبر عن الجميع ، حتى لا يصل إلى علم خوفو ، لأنها كانت تعلم أن خوفو يقتل كل طفل يعرف أنه سيتولى الملك من غير أطفاله .

وتقف القصة هنا ، لأن النص ممزق ومفقود .

ولكن الجزء الموجود من القصة يدل على ما كان يعانيه خوفو من قلق . . وعلى حرصه فى أن يكون لهرمه مغاليق لا تفتح ولا يصل إلى سرها أحد ، مثل مغاليق معبد تحوت .

* *

كنت أقرأ فى هذه البرديات ، حينما جاءنى أحد العمال يهرول فرحاً ، وفى يده لوح من الأردواز ، عليه كتابة هيروغليفية .

كانت الكتابة أشبه بتحية أو أغنية أو خطبة قيلت فى الاحتفال بتتويج أحد الملوك وكانت ترجمتها كالآتى :

ياله من يوم سعيد ، فالأرض والسماء مبتهجان ، لأنك سيد مصر العظيم . .

لقد رجع الهاربون إلى مدنهم ، وظهر أولئك الذين كانوا مختبئين .

وأصبح الجائعون سعداء ، وقد شبعت بطونهم ، وأصبح الظامئون مرتوين .

ومن كان عارياً ، أصبح يرفل فى الكتان الجميل ، ومن كان فى أسمال ، أصبح يرتدى أجمل الثياب .

وأطلق سراح من فى السجون .

أما الأرامل ، فقد تركن أبواب بيوتهن مفتوحة ، وصار يدخلها الزائرون .

وابتهجت السفن ، وهى فوق المحيط ، لأن البحر اختفى موجه ، وأخذت السفن تصل إلى الشاطئ وهى تسير بالرياح وبالمجاديف .

ولم يكن على اللوح إشارة إلى الملك المحتفل به ، أو إلى الكاتب .

وذهبت مع العامل إلى المكان الذى اكتشف فيه اللوح . . ولكنى لم أجد مكاناً ، أو قبراً ، أو مصطبة ، أو بناء من أى نوع ، وإنما مجرد كومة من الرمل .

وأمرت بتركيز عمليات الحفر فى هذه الكومة .

ووقفت على رأس العمال أختبر كل صغيرة وكبيرة تظهر على أطراف معاولهم .

عثرت فى الرديم على حبات من الخرز الأخضر ، وتماثيل صغيرة ، ودمى من العاج ، وجعارين ، وثلاثة ألواح أخرى ، بها شروخ متعددة ، لكن كتابتها مقروءة . . وهى أغنيات غزل من أخ لأخته ، ومن أخت لأخيها (كان الغزل والزواج بين الأخوات أمراً مألوفاً فى أيام الفراعنة ، وأكثر الملوك الفراعنة ، تزوجوا أخواتهم ، وأخناتون تزوج ابنته) .

تقول الأخت لأخيها فى الأغنية :

إلهى . . يا أخى . إنه لجميل أن أذهب إلى البحيرة لأغتسل أمامك .

وأجعلك ترى جمالى ، وقد ارتديت ثوبى المصنوع من أجمل الكتان الملكى عندما يبتل .

إنى أغطس فى الماء معك ، ثم أعود إليك بسمكة حمراء ، وقد استقرت جميلة بين أصابعى . . تعال وانظر إلىّ .

ويقول الفتى :

عندما أرى أختى آتية ، أفتح ذراعى لأعانقها ، فيبتهج قلبى فى مكانه مثل العصفور .

إذا عانقتها وفتحت لى ذراعيها ، أحس كأنما أصبحت مثل شخص من بلاد بونت ، مضمخ بالعطر .

فإذا قبلتها ، وفتحت لى شفتيها أحس بأنى قد انتشيت دون أن أتذوق الجعة .

ليتنى كنت جاريتها التى تقوم على خدمتها حتى أرى لون جسدها كله .

ليتنى كنت غاسل ثيابها ، ولو مدة شهر واحد ، لأغسل العطر الذى فى ثيابها .

ليتنى كنت الخاتم الذى فى أصبعها .

والسوار الذى فى ذراعها .

والعقد الذى على صدرها .

وفى اللوح الثالث أغنية حب رقيقة كلماتها كالآتى :

ضياؤها ساطع وجلدها منير .

جميلة العينين ، عندما تنظر

حلوة الشفتين ، عندما تفتحها لتتحدث .
لا تنبس بكلمة ، لاحاجة لها
طويلة العنق ، جميلة الثدى
وشعرها أسود يلمع
ذراعها يفوق الذهب فى طلاوته
أما أصابعها ، فمثل براعم اللوتس
ثقيلة الأرداف ، نحيلة الخصر
ينبىء ساقاها عن جمالها
وما أرشق قدمها عندما تسير .
لقد سلبت روحى مع قبلتها
إنها تجعل أعناق الرجال تنثنى .
مستديرة نحوها إعجاباً عند رؤيتها .
ما أسعد الذى يلثم فمها
فإنه يصبح أقوى من كل الرجال
كنت أمام قبر شاعر ، أو أمير مولع بجمع المخطوطات الغنائية .

* * *

لم يسفر الحفر طول النهار عن شىء جديد . . أخرجت المعاول قناطير من الرمال . . ثم لا شىء .

كانت قطع الحجارة التى يعثر عليها مفتتة .
وتحت الحجارة كنا نجد تلالا أخرى من الرمال .
وحينما كانت الشمس تغرب ، كان اليأس قد بلغ منى مبلغه
وكنت أدور فى مكانى مثل نخلة قطعوا رأسها .
كنت أفكر . . وأعصر دماغى .
وكل مكان فى رأسى أصبح مملوءًا بكلمة واحدة هى
« حم يون » .
حينما خرقت أذنى صرخة مدوية .
لقد سقط أحد العمال فى حفرة .
وأسرعنا نحو العامل وانتشلناه . .
ونظرت فى المكان حيث انزلقت قدماه وسط الرديم . . وبدأنا
نزيل الرمال .
لم تكن حفرة . . وإنما كان بئرًا . .
وكانت سلالم البئر واضحة .
كانت تنزل درجة درجة ، إلى قرب القاع ، حيث تبرز جوانب
سقاطة حجرية كبيرة . .
أخيراً . .
أصبحنا على بعد خطوات من غرفة الدفن .
ونزلت الدرجات . . درجة . . درجة . . وقلبى يدق من الانفعال .

٩

وصلت إلى الدرجة الأخيرة فى قاع البئر ، وكان قد سبقنى هناك بعض العمال . . وكانوا يعملون معاولهم فى السقاطة الحجرية . .

وبمجهود قليل أمكن إزاحتها . .

وانكشفت الغرفة الصغيرة ذات السقف الواطئ أمامى . .

وكان هناك تابوت من الجرانيت فى وسطها محفور عليه اسم « حم أيون » . . وكان التابوت مغطى بغطائه ، ومنظره يبشر بأن المومياء الراقدة بداخله لم تسرق . .

ورفعنا الغطاء الجرانيتى ، ونحن نتعلل بالآمال لنفاجأ ، بالتابوت خاو على عروشه والجثة مسروقة . .

المنظر المعتاد الذى يكسر القلب . . والذى يتكرر فى كل مقابر هذا العصر . .

أغلب الظن أن الهكسوس لم يبقوا حجراً على حجر فى تلك الأيام . . ولم يتركوا معبداً أو قبرًا إلا خربوه . .

وكنت أقرأ النقوش الهيروغليفية على الجدران ، وفيها يروى حم أيون ، الأعمال التى قام بها . . كيف أنه قام على رأس بعثة إلى جبل المغارة بسيناء لإحضار الفيروز والنحاس . . وكيف نقش اسم أبيه الملك المعظم سليل الآلهة خنوم خوفو وى (الاسم الكامل لخوفو . . وخنوم هو الإله صانع البشر ، وهو يرسم دائماً على جدران المعابد أمام عجلته الفخارية ، وهو يصنع مخلوقاته البشرية) على مناجم النحاس (وجد الاسم محفوراً بالفعل فى مناجم النحاس بسيناء) .

ويروى حم أيون فى مكان آخر ، كيف رأس بعثة إلى مدينة جبيل بلبنان ، لإحضار الأخشاب . . وكيف بنى معبدًا مصريًّا فى جبيل ، لعبادة إله الشمس .

وكيف اشترك فى بناء الهرم الأكبر ، وفى هندسة المعبد الجنائزى أمامه ، وكيف رصف أرضية المعبد بحجر الدلوريت الأسود المقطوع من محاجر الفيوم .

وكيف أنشأ جسرًا ضخماً ، ينزل من الهضبة حيث الهرم إلى الوادى حيث معبد الوادى الكبير ، ورصد الفنانين لزخرفته وتزيينه باللوحات الجميلة (لم يكتشف المعبد ، ولا الجسر بعد ومكانه بحسب الكلام يقع تحت نزلة السمان) وفى أسفل الكلام إشارة عن تغيير فى تصميم الغرف الداخلية بالهرم ، وتعديل فى بناء مسالكه

ومراته . . لكن النقوش الهيروغليفية متآكلة ، والجدار محطم بشكل يجعل القراءة مستحيلة . . لكن مالفت نظرى ، هو رسم هرمى فى أقصى الجدار ، وعلى ضلعه الأيمن (بالنسبة لوضع الجدار والمقبرة يكون هو الضلع الشرقى) علامة ، ويبدو أن الرسم هو شرح للنص المكتوب . .

وربما كان الكلام عن مدخل على الضلع الشرقى للهرم كما قال نون محب . .

احتمال . . مجرد احتمال . .

ولكن بدون هذا الاحتمال يبدو وجود الرسم الهرمى غير مفهوم إلا إذا كان حرفًا هيروغليفيًا جديدًا لا نعرفه فى قواميسنا .

كنت منهمكاً فى قراءة الكتابة الهيروغليفية ، حينما قال لى العامل بجوارى إن هناك سرداباً .

وكان العامل يطل من طاقة مستديرة فى الجدار . .

وأسرعت إلى حيث يطل ، ووضعت عينى فى الطاقة ، لأجد تمثالاً محطماً ، أغلب الظن أنه تمثال حم أيون نفسه . . وعلى مدى ماترى العين ، كان هناك سرداب طويل .

وكان لابد أن نوسع الطاقة ، لندخل إلىالسرداب . .

وكانت على جدران السرداب ، صلاة إلى حورس ، الذى يرعى أجسام الموتى ، ليدل الميت على طعامه ، ويعاونه على أن

يتغذى من قربانه ، ويتنفس الهواء الطلق ، حتى لا يختنق فى صندوقه ، ويجوع ويأكل من برازه ، ويشرب من بوله .

وعلى جانبى السرداب ، تراصت صفوف من أوانى الجعة الفخارية . . وفى أحد الأركان إناء كبير ، فيه عدد من اللفافات البردية . . الكنز الثمين الذى كنت أبحث عنه . .

* * *

وحينما عدت إلى مكانى فى مساء ذلك اليوم ، كانت هناك أحلام كثيرة تراودنى . .

إن خرافة « حم أيون » لم تعد خرافة . .

ونقوش المقبرة أثبتت أن تصميم الغرف الداخلية للهرم قد أجرى فيه تعديلات ، والمسالك والممرات السرية ، رسمت لها مداخل جديدة . .

والعلامة على الضلع الشرقى للشكل الهرمى المرسوم ، لابد أنها تدل على شىء . .

كنت أقترب بسرعة من السر . .

وبسطت البرديات أمامى . .

كانت مجموعة من الوصايا . .

مررت عليها بسرعة بحثاً عن هدفى . .

ولكن لم أجد سوى وصايا ، من السطر الأول للأخير . .

والظاهر أنها كانت الوصايا التى حفظها حم أيون عن أستاذه . . أو أنها جزء من كتاب الوصايا الذى كان يعلمه المعلمون فى ذلك العصر . .

تقول البرديات :

احذر من الاقتراب من النساء فى أى مكان تدخله ، فقد انحرف ألف رجل عن جادة الصواب بسبب ذلك . . إنها لحظة قصيرة كالحلم ، والموت جزاء الاستمتاع بها .

لقد سمعت بأنك تجرى وراء ملذاتك ، وتذهب من شارع إلى شارع ، حيث تفوح رائحة الجعة من فمك . .

إن الجعة تنفر الناس منك ، وتودى بك إلى الهلاك ، وتجعلك كدفة مكسورة فى سفينة ، لاتفيد فى التوجيه إلى يمين أو يسار . .

لايداخلك الغرور بسبب علمك ، ولا تختال وتنفخ أوداجك ، لأنك رجل عالم . . استشر الجاهل ، كما تستشير العالم ، فما من أحد استطاع أن يصل إلى آخر حدود الفن ، ولا يوجد الفنان الذى يبلغ الكمال فى إجادته . .

إن الحديث الممتع ، أشد ندرة من الحجر الأخضر اللون ، ومع ذلك ، فربما تجده لدى الأرقاء والجوارى اللائى يجلسن إلى الرحى . .

هدئ من روع الباكى ، ولا تظلم الأرملة ، ولا تحرم إنسانًا من ثروة أبيه ، ولا تطرد موظفاً من عمله ، وكن على حذر من مظلوم ، يضمر الانتقام من ظالمه . .

لا تقتل ، فإن ذلك لن يكون ذا فائدة ، بل عاقب بالضرب والحبس ، فإن ذلك يقيم دعائم البلاد ، اللهم إلا من يثور عليك ، وتتضح لك مقاصده ، فإن الله يعلم خائنة القلب ، والله هو الذى يعاقب بالموت . .

لا تقتل رجلا إذا كنت تعرف جميل مزاياه .

ولا تقتل رجلا كنت تتلو معه الكتابات (يعنى زميلك فى الدراسة) . .

لا يوجد شجاع فى ظلام الليل ، ولا يمكن لإنسان أن يحارب وهو وحيد . .

لا أصدقاء لأحد فى يوم الأسى . .

إذا كان لسانك هو دفة سفينتك ، فإن إله الكون هو ربانها . .

إن الكلام يتدفق بسرعة عندما يحس القلب بالأذى ، وهو أسرع من الشلال عند مخارج المياه ، فاحذر من الاندفاع ساعة الغضب . .

لا تقل « ليست لى خطيئة » وتشغل نفسك بالتفكير فى خطايا الناس . . فالله وحده هو المختص بالحكم فى خطايا الناس وهو الذى

ختم على أقدارهم بأصبعه . .

لا ترقد فى الليل خائفا مما يأتى به الغد ، فالله يحقق دائماً ما يريده . .

لا تتخذ الرجل سريع الغضب لك صاحباً .

لا تكثر من إصدار الأوامر إلى زوجتك فى منزلها ، إذا كنت تعلم أنها سيدة صالحة . . لا تقل لها أين الشىء . . أين مكانه . . أين أجده . . إذا كنت قد وضعته فى مكانه المعهود . . لاحظ بعينيك والزم الصمت حتى تدرك جميل مزاياها . .

يالها من سعادة حينما تضم يدك إلى يدها . . كثير من الناس هنا لا يعرفون حال الإنسان ، دون حدوث الشقاق فى منزله . .

ليكن قلبك ثابتًا غير متقلب ، ولا تدع امرأة أخرى تسرق قلبك . .

ضاعف الخبز الذى تعطيه لأمك ، واحملها كما حملتك . . لقد كنت عبئاً ثقيلا عليها ، ولكنها لم تتركه للآخرين يحملونه . .

لقد حملتك تسعة شهور فى بطنها ، وظلت مغلولة بك ، وظل ثديها فى فمك مدى ثلاث سنوات . . وبالرغم من أن قاذوراتك شىء تتقزز منه النفس ، فإن قلبها لم يتقزز . . ولم تقل ماذا أفعل فى هذه القاذورات . .

لقد أدخلتك المدرسة عندما ذهبت لتتعلم الكتابة .. وكانت تذهب من أجلك كل يوم تحمل إليك الخبز والجعة من منزلها . .

والآن وأنت شاب ولك زوجة ، تذكر ما فعلته لك أمك ، ولا تجعلها ترفع يديها إلى الله لتشكوك . .

لا تميز بين شخص ذى حيثية ، وشخص فقير ، بل عامل كل إنسان بحسب عمل يديه . .

لا تحدث ضرراً لمبنى أقامه غيرك ، ولا تبنى قبرك من أحجار الخرائب .

إن أذن الطفل موضوعة فوق ظهره ، وهو يحسن السمع عندما يضرب .

لا تقضى يوماً واحداً دون عمل ، وإلا فسيكون الضرب نصيبك .

إذا جلست على الأكل مع أشخاص كثيرين ، فلا تقبل كثيراً على الطعام ، حتى ولو كنت تشتهيه ، فإنه من المخجل أن يكون الإنسان شرها . .

إن كأسًا واحدة من الماء تروى الظمأ ، ولا فائدة من الإفراط فى الشراب ، فلن يقوى هذا قلبك .

تذكر أن شبابك هو أثمن كنز تملكه ، وافعل فى شبابك مايعينك فى شيخوختك ، فأنت لا تعرف الشيخوخة ، حيث الفم

ساكت لا يتكلم ، والعينان ضيقتان كليلتان ، والأذنان مصابتان بالصمم ، والقلب كثير النسيان ، والأنف مسدود لا يستنشق الهواء ، والقيام والقعود ، كلاهما مؤلم ، وطعم الحسن ، كطعم القبيح ، والعقل يخطئ فى كل الأمور . .

كانت هذه خلاصة لكتاب الوصايا . . وأغلب هذه الوصايا كانت مكتوبة شعراً . .

وكانت هذه نهاية ما حصلت عليه من مقبرة « حم أيون » . .

هل كان مقدراً لى أن أمضى وحدى لأكتشف بقية السر . .

إن كل الدلائل كانت تشير إلى أن الضلع الشرقى للهرم هو مكان الباب السرى . .

والضلع الشرقى هو أصعب الأماكن صعوداً فى الهرم ، فأحجاره كبيرة وسليمة وحادة الأركان ، وكل حجر منها كالجبل . .

كنت مستغرقًا فى التفكير ، حينما لفت نظرى كوم البوسطة على المكتب . .

لقد أغفلت أمرها طوال هذه الأيام ، حتى تراكمت هكذا ...

وكانت أغلبها استفسارات من المتحف المصرى عن معلومات ومواصفات خاصة بالقطع الأثرية التى اكتشفناها أخيراً ، وعن ظروف كشفها . .

أما الخطاب الأخير فقد كان عليه طابع من الهند . ..

وفتحته فى قلق . .

كان من أمرى خان ، ينعى إلى وفاة « البراهما » ، ويسألنى عن أحوالى ، ويقول إن « البراهما » سأل عنى قبل أن يموت . .

وتاريخ الخطاب ١٠ ديسمبر وهو تاريخ متفق مع ليلة اكتشافى لمقبرة أمحوتب ، وتلك الليلة التى قضيتها فى أحلام مشوشة مختلطة ، وكانت صورة « البراهما » تختلط على بصورة أمحوتب طوال الليل . .

أمسكت بالخطاب فى رهبة ورحت أفكر فى «البراهما» . .

وخيل إلى أنه يملأ المكان حولى . .

وحاولت أن أستلهمه الصواب . .

إذا كان الإنسان له بقاء بعد الموت . .

وإذا كانت الأرواح المتحابة تتواصل ، فلا شك أنه سوف يلهمنى . .

لا يمكن أن يكون الإنسان هو ذلك التركيب المعقد من البروتينات والأملاح المعدنية ولا شيء غير ذلك .

إن هذه المواد البروتينية الحساسة ليست سوى جهاز الكتابة التلقائية فى يد نفس شفيفة تصور به فكرها وإلهامها . .

كنت أشعر أنه لابد من المضى فى طريقى إلى آخره لأكتشف الحقيقة أو أهلك دونها . . ولم يكن أمامى سوى سبيل واحد . .

هو الصعود على طريق الآلام . .

١٠

« الصعود على طريق الآلام » تعبير متواضع جداً عن الصعود على الهرم من حافته الشرقية . .

إنها مخاطرة رهيبة محفوفة بالموت فى كل خطوة . .

كل حجر يحتاج إلى ساعة من الاحتيال حوله ، فهو أملس وسامق كالجبل ، ولابد أن تنبش فيه الأظافر والخطاطيف حتى تتسلق عليه . .

وفى سن الخمسين يصبح كل شىء صعباً . .

كنت أستريح بعد كل حجر ، وكأنى قطعت عشرة أميال فى الجرى حتى فقدت أنفاسى . .

لقد حاولت أن أحصل من مدير مصلحة الآثار على أمر بتجهيز بعثة لاستكشاف الحافة الشرقية للهرم .. ورفع السقالات اللازمة . . وحينما علم المدير أنى أبحث عن باب سرى للهرم ضحك . . ضحك حتى استلقى على قفاه . .

– ولماذا تبحث عن باب سرى ، لتدخل منه إلى ماذا ؟ ؟
إن داخل الهرم أصبح مكشوفاً لا سر فيه . .

والمسالك والممرات وغرفة الملك . . وغرفة الملكة . . والبئر كلها أماكن اكتشف أمرها . . وفى إمكانك أن تدخلها بقرش ومعك دليل من مصلحة السياحة يشرح لك ماتراه مجاناً .

وحينما قلت له : إن هذه الممرات والمسالك والغرف مزيفة . . وأن تابوت الملك الفارغ وضعه الفراعنة للتضليل . . عاد يضحك . . ونظر إلىّ كأنه ينظر إلى مخبول . .

– أنسيت أن الهرم كان نهباً مباحاً لكل مقتحم من أيام الهكسوس إلى أيام محمد على ، حيث فكر التركى الغازى أن يقتلع حجارته ، ليبنى بها القناطر الخيرية . . وأنه لم يوجد لص هاو ، أو محترف ، خلال الأربعة آلاف سنة ، التى مضت إلا ونقبه بحثاً عن الأسرار الخرافية التى تكلمنى عنها . .

الهرم لم تبق منه إلا خرابة مفتوحة نهبها اللصوص . .

الهرم لا سر فيه . . أنت تحلم . .

ولم أشأ أن أقول له إنى أحلم فعلا . .

ولم أشأ أن أروى له ما رأيته من أمر « البراهما » ، ونون محب ، حتى لا يضعنى فى قميص الكتاف ، ويرسلنى إلى مستشفى المجاذيب . .

وأخذت المخاطرة كلها على عاتقى وحدى . .

لم أجد دليلا يقبل أن يصاحبنى فى صعودى عبر هذه الحافة الخطرة . . ولم يكن منهم من يعرف طريقة لعبور هذه الحافة بالفعل . .

كنت أول من يرتاد هذا الطريق . .

وكان يعزينى أنى لن أحتاج لأكثر من الصعود إلى الثلث الأول من الحافة . . فالعلامة كانت فى مكان ما بالثلث الأول . .

إن آلامى لن تطول . .

وكنت أفحص كل حجر من جميع جوانبه قبل أن أرشق فيه الخطاف ، باحثاً عن مكان يمكن أن يكون باباً . . وأتحسس الحجر الصلد وأدق عليه ،وأتسمع الاهتزازات الصوتية بأذنى . .

كانت كل كتلة حجرية مصمتة من جميع جوانبها . . ولا أثر يدل على تجويف أو ممر مفرغ بالداخل . .

ورحت أرشق الخطاف وأصعد . .

وفجأة أحسست بالخطاف ينزلق ويهوى . . ورأيت نفسى أتدهور من حالق . . وأرتطم فى أكثر من مكان من جسدى . . وانطبقت السماء على الأرض . . ورأيت وجه « البراهما » ناظرًا إلىّ بإشفاق . .

* * *

وحينما فتحت عينى كنت راقداً فى سرير فى مستشفى . . وذراعاى وساقاى فى جبائر . . وحول صدرى أربطة عديدة لاصقة حتّى العنق .

وكان على رأسى طبيب ينظر إلىّ نظرة حانية ويهمس :

– لقد نجوت بمعجزة . .

وكنت أحملق فى الجبس والأربطة اللاصقة التى تحيطنى من كل مكان . . غير مصدق لهذه النجاة المزعومة . .

ويردف الطبيب :

– نعم . لقد كسرت ذراعك وساقاك ، وتحطمت بعض ضلوعك . . ولكن رأسك لم يصب بسوء ، وعظام حوضك سليمة . . وهذا أمر خارق بالنسبة لرجل يسقط من أعلى الهرم ويرتطم مرة بعد مرة بأحجاره . . لقد كانت الملائكة تحملك على يديها . .

وكان المدير يقف بجوار الطبيب ويهتف فى دهشة :

– أنت فقدت عقلك بلا شك . . كيف تفعل هذا الفعل : ألم أقل لك إن ما تفكر فيه هو الجنون بعينه . .

نعم إنه الجنون . .

وحياتنا كلها جنون . .

نحن نأكل الجوع ، ونشرب الظمأ ، ونحصد الندم ، ونموت

جهلاء ، كما ولدنا ، لا نعرف من أين وإلى أين وكيف . . ولماذا . . كنا . . وكيف أصبحنا . . أليس هذا هو الجنون . .

كنت أفكر وشفتاى مضمومتان ، وعيناى حائمتان فى الغرفة البيضاء كأنها الوهم . . وأنفاسى تؤلمنى كأنها مناشير . ولا أقوى على الكلام . .

وغرس الطبيب حقنة المورفين فى ذراعى .

وهدأت المناشير . .

أصبحت مثل أفاعى لينة تلتف حول صدرى وتضغط عليه فى حنان مخيف . .

* * *

خيم الظلام على الغرفة . .

وانقطعت خطوات النوبتجى السهران من الممر . .

وانسدل سكون رهيب . .

إن ما قاله الحكيم المصرى القديم فى كتاب وصاياه صحيح . . حقًّا . . لا يوجد شجاع فى ظلام الليل . . ولا يمكن لإنسان أن يحارب وهو وحيد . .

إنى أشعر بأنى أقترب من ختام قصتى . .

أشعر بالخوف يغتصبنى اغتصاباً . .

أشعر أنى فقدت الشجاعة ، وفقدت الوسيلة إلى أى شيء . .
فهاهما ذراعاى مكسورتان ، وأنفاسى هى الأخرى متقطعة مكسورة ، وقلبى كسير ، وعقلى عاجز . .

لقد بلغت نهاية القدرة على طريق الآلام . .

وعلى الآخرين أن يكملوا الرحلة مستدلين بالعلامات القليلة التى وضعتها على الطريق . .

لم أعد أستطيع أن أفعل شيئاً . .

وكيف يستطيع عقل وحيد ، يتحدى رؤى الواقع الصفيق أن يفعل أكثر مما فعلت . . ما أنا إلا إشارة على الطريق . .

والطريق طويل بلا نهاية . . ولابد أن تتكاتف كل العقول لإضاءته واكتشافه . . إن ما نعلمه قليل . . وما نجهله كثير لا حد له . .

والإنسان عدو لما يجهل . . وهو لهذا لا يحاول أن يفهم . . ويغلق كل باب يدخل منه النور بغبائه وتعصبه . .

ولكن الحقيقة أعظم من أن يحتكرها عقل واحد ، أو مذهب واحد . .

والحياة فوق جميع المذاهب ، لأنها أصل لها جميعاً . .

ولكن التعصب يسد الطريق على كل عقل يحاول أن يجتهد ، ويحجب عنه المدد الذى يأتيه من الينبوع العظيم الذى لا ينضب من الحياة . .

وحينما تتحكم المذاهب فى الحياة . . تتجمد الحياة وتتوقف وتموت . .

تموت الدهشة . . ويموت الفضول ويموت الخيال والابتكار . .

تموت النشوة الخارقة التى يبعثها المجهول ، وتتحول الحياة إلى قواعد وقوانين يسمونها علماً . . وهى ليست من العلم فى شىء . .

العلم مفتوح الذراعين لكل الحقائق . .

العلم لا يخجل من مناقشة الوهم والهذيان والخرافة . . لأن المعرفة غير المحدودة قانونه ، والتواضع خلقه . .

العقل لا يخشى اللامعقول .

والإرادة لا تعرف المستحيل . .

سوف يرى الكثيرون فى بعض ما رويته فى قصتى خرافات .

لماذا لا نحاول أن نفهم معاً ، بدلا من أن نحتقر ما نجهله ، ونقول عنه خرافات . .

إن الحقيقة أقرب إلينا من أصص الريحان ، التى نضعها تحت نوافذنا ، لو حاولنا أن نفهم . . إنها تحت أنوفنا ، ولكنا نستعمل أنوفنا وفقاً لتقاليد وضعت لنا من قبل . . لماذا لا نحاول أن نشم فى حرية .

لماذا لا ننظر ببراءة الطفل ، لنرى الأشياء فى جدتها المدهشة ،

ولنرى الظواهر نابضة ، موحية بآلاف الحقائق . .

ليس لدى ما أضيفه لهواة الغيب . . فما عندى قد قلته .

وقدرتى بلغت نهايتها .

وكل ما أملكه ، هو أن أشير إلى الحقيقة . أشير إليها بذراعين مكسورتين .

إن حياة تنتهى بالموت ، ولا بقاء بعدها ، هى حياة لا تستحق أن نحياها .

إنها ليست حياتنا .

إن حياتنا أعظم من أن تنتهى إلى الدود والتراب .

إن القداسة التى تتسم بها الحياة فى صميمها ، تنفى عنها هذه النهاية الهازلة .

هل فكر أحدكم فى نفسه . .

هذه النفس التى صيغت من مادة الهذيان والأحلام والرؤى .

إن أجمل ما أخرجته لنا حضارة الإنسان ، بدأ حلماً . .

كل ما يقوم على الأرض من مدن وأبراج ومصانع ومعابد بدأ حلماً وهذياناً ورسوماً وخطوطاً مجردة من الفراغ . . بدأ هباءً فى عقل . .

من نبضة خيال ، قام العالم . .

كلمة السر هى هنا . .

فى داخل نفوسنا . .

لو أننا فكرنا فى نفوسنا ، لروعتنا أكثر من كل صنوف السحر .

ولكننا نمضى منطلقين فى رحلة العمر ، وعيوننا مقلوبة إلى الخارج . . لا ننظر إلى وراء . . ولا نتوقف لنتساءل . . ولا نتأمل .

نلتمس الأسرار ، والأسرار فينا . .

ونبحث عن السحر . . ونحن السحر . .

وننتظر المعجزة ، ونحن المعجزة . .

كيف يمكن أن تصبح هذه النفس حفنة من تراب ، وتنتهى إلى لا شيء . .

إننا لا نموت . . كما أن « البراهما » لا يموت . . كما أنه عاش فى كل الأمكنة ، وفى كل الأزمنة . . كما أنه ولد فى مختلف الحضارات كما تولد الكلمات ، ليقول نفس الغايات . . وكأنه كان يعيش حضارات متعاصرة . . كذلك نحن يتعاصر فينا الماضى والحاضر ، ونرى سريان الزمن من منظار الأبدية .

لا موت هناك

ليس بعد الحياة ،إلا حياة . .

وليس فى الكون المتحرك نقطة سكون . .

الكل يتحرك فى دورة أبدية لا نهاية لها . .

كما تخرج الفراشات من الشرانق . . كما تخرج السويقات

الخضر من حبات القمح المدفونة أربعة آلاف عام . . كذلك نخرج من حياة ، إلى حياة ، فى استمرار أبدى . .

أقول هذا لمن يجيئون بعدى . .

وأقول لمن يسألنى عن متوسط عمر الإنسان . .

إنه اللانهاية . .

رقم الإيداع		١٩٩٣ / ٧٩١٩
الترقيم الدولى	977 - 02 - 4189 - 9	ISBN

١ / ٩٣ / ٨٥
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائما على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبوابًا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.

